15me Année No. 707

Lundi — 20 — 1 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ صفر سنة ١٣٦٦ — ٢٠ يناير سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

أشهر الرسائل العالمية

للأستــاذ عباس محمود العقاد

كلمة الرسالة من الكلمات التى يستشهد بها على تطور الكلمات فى معانيها ودلالاتها على حسب أحوال الزمن ومناسباته، فالرسالة مكتوب يرسل من إنسان إلى إنسان، والرسالة دعوة دينية يؤديها رسول من الله، والرسالة مهمة من مهام الإصلاح والإرشاد، والرسالة فى المصطلح الحديث كتاب صغير فى بحث وجيز، والرسالة اسم هذه المجلة التى تجمع بين هذه الدلالات ما عدا الرسالة السماوية التى يختص بها الرسل من الأنبياء .

وربما كان أصل الكلمة كلها من مادة « الرسل » بمعنى اللبن إذ يفيض سهلا من الأثداء، ثم استعملت للخصب والسهولة والانطلاق الرخى الذى لا تعويق فيه، ثم كان إرسال الشىء عامة هو نقله من مكان إلى مكان فى رفق ولين . ثم كان الإرسال لكل تحريك رقيق أو عنيف ورخى أو شديد .

وهكذا تتطور الكلمات فى اللغة العربية وتبقى أصولها كما تبقى معانيها المجازية وهى تتحول مع الزمان وتحولنا معها وإن أبينا عليها التحويل .

* * *

والرسائل التى نعنيها فى هذا المقال هى المكاتيب بين الآحاد وهى أيضاً قد تحولت مع الزمن وتطورت مع مستحدثاته السابقة واللاحقة، ومنها تعميم الكتابة وتنظيم البريد وشيوع المطبعة على التخصيص.

فانتشار التعليم مع انتظام البريد قد جعل الرسالة كثيرة الأغراض يكتبها العامى الجاهل كما يكتبها الأديب المطلع، وتكتب فى الشئون اليومية كما تكتب فى الشئون الإنسانية الباقية . فليست كتابتها اليوم موضع احتفاء وتنميق كما كانت يوم كان كتابها جميعاً من العلماء والأدباء . وكانت — لصعوبة انتظام البريد — تدخر للموضوعات النادرة والأساليب الأدبية أو الأساليب التى تلاحظ فى مخاطبات الدول والرؤساء .

وشيوع المطبعة قد جعل الطبع وسيلة لنشر المؤلفات العلمية والمصنفات الأدبية . فأصبحت الرسالة الخصوصية كالملابس الخصوصية فى قلة الاحتفاء والعناية، وكادت العناية أن تقصر على الموضوعات التى تذاع وتشاع، خلافاً لما كان فى عصور الأمية ونقل الكتب بالأيدى فى نسخ معدودات .

فأقل ما يقال عن تطور الرسالة مع الزمن أنها لم تتقدم فى عصر المطبعة والبريد، وأنها أصبحت من الموضوعات التى لا تخص بالتجويد والتحسين، وقد تخص بالعجلة وقلة الاكتراث .

وهذ سبب من أسباب الحرص على هذا التراث الذى يستحق الاحياء والاستبقاء، ولعلنا نحييه ونحبب العناية به إلى كتابه إذا أعدنا ذخائره القديمة إلى الذيوع والتداول، وأضفنا إلى رسائل

البلغاء فى اللغة العربية نماذج أخرى من رسائل البلغاء فى اللغات العالمية ، كما فعل صاحب الكتاب .

هذا الكتاب هو « رسائل العالم الكبرى » وجامعه هو لنكولن شستر الأمريكى Schuster ومصادره هى لغات العالم القديم والحديث ومنها اللغة العربية . فقد ترجم منها رسالة الاسكندر إلى دارا التى يسمى فيها الاسكندر بلفظه العربى Zu Ulkurnain ذى القرنين ، وترجم غير هذه الرسالة من الروسية والألمانية والفرنسية واللاتينية والإغريقية . فكان الكتاب من أوفى مجموعات الرسائل الكبرى التى ظهرت فى العهد الأخير .

ومن أصحاب الرسائل المجموعة رجال من أعظم أعلام التاريخ فى العلم والفن والحرب والسياسة . نذكر منهم كولمبس وبا كون وفولتير وواشنطون ونابليون وروبسبير وهكسلى الكبير وبيتهوفن وبيرون ودستيفسكى ونيتشة ولنكولن وزولا ومارك توين وعشرات من هذه الطبقة فى العصور القديمة والحديثة ، يفرغون قلوبهم فى ودائع أدبية لم يقدروا لها — أو لأكثرها — أن تصل إلى أيدى القراء ، ويسرون فيها أحياناً غير ما يعلنون من الوساوس والآراء .

وفى المجموعة رسائل لأناس لم يشتهروا فى الشرق كما اشتهر الذين ذكرناهم فيما تقدم ، ولكن رسائلهم فى الغرب ذخيرة من أنفس ذخائرهم المروية بين الأدباء والأديبات ، ومن هذا القبيل رسائل أيلاب الفيلسوف الكاهن وهلواز الفاتنة المترهبة ، وقصة حبها الفاجع كأغرب القصص التى تروى عن عشاق العرب المشهورين .

توفر على ترجمة نخبة من هذه الرسائل إلى اللغة العربية أديب قدير فى النقل من الإنجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الإنجليزية ، وهو الأستاذ محمد بدران ، وأصدر الجزء الأول منها فى أكثر من مائتين وأربعين صفحة من القطع الكبير ، وسماه أشهر الرسائل العالمية ، وأجاد النقل فى لغة سهلة صحيحة دقيقة التعبير . فهيأ لقراء العربية مادة من القراءة الممتعة النافعة لم تتهيأ لهم قبل هذا الكتاب ، وأعطاهم فى كل رسالة من هذه الرسائل التى بلغت خمسا وستين زادا للفكر والعاطفة يفعم القلب والخيال

ويأبى شستر صاحب المجموعة الإنجليزية أن يصدق أن عصر البرق والتلفون قد جنى على الرسائل وضيق عليها المجال . فهو يقول فى مقدمة المجموعة : « إن اعتقاد المتقدين أن البرق والتلفون قتل فن الراسلة هو فى رأيى اعتقاد بغير أساس . ومن حين إلى حين ينهض كاتب من كتاب المقالات والفصول فينعاها ويأسف لزوالها فى غضب مشروع ، وأنه لكن ينبى وقائع الحب العظمى والصراع العظيم والفن العظيم والمأساة العظيمة والخواطر العظيمة ، وقد يجد الجواب البين فى الرسائل الباقية التى احتوتها هذه المجموعة واشتملت على تلك الصيحات المثيرة التى بدرت من أميل زولا وروبرت لويس ستفنسون ومدام كورى وبارتوليو فانزيتى ولورنس وكونراد وتروتسكى وتوماس مان . وغيرهم من المعاصرين الذين انتخبنا لهم بعض الرسائل فى هذه المجموعة .. »

وعندنا أن هذا الإشفاق من الرجل المشغوف بفن المراسلة هو ضرب من إشفاق الوالدين على الأبناء .

فكل فنان متعلق بفنه يأبى أن يسمع نعيه أو يترقب زواله ، وكل والد يحب وليده يأبى أن ييأس من حياته ولو أنذره باليأس منه أقدر الأطباء .

ومثل هذا الشغف معقول ومقبول ، ولكنه لا ينفى الحقيقة التى تدل عليها عبارة المؤلف هذه وهو يسوقها لنفسه وللقراء مساق الطمأنة والتبشير . فلو قيس ما كان ينبغى أن يكتب فى العصر الحديث من رسائل الأدباء إلى ما كتب فعلا واختاره فى المجموعة لظهر أن الواقع لا يتجاوز معشار المطلوب أو المأمول . فإن العصر الحديث يخرج لنا من الأدباء فى كل قطر ما يربى عدده فى الجيل الواحد على عدد أمثالهم فى جميع العصور اليونانية واللاتينية ، وهم مع هذا لم يكتبوا جميعا مثل ما كتبه الأدباء الأقدمون أو ما كتبه معاصروهم من العظماء والرؤساء .

فلا شك فى جناية البرق والتلفون والبريد والمطبعة ومقابلات المسارح ودور الصور المتحركة على تبادل الرسائل البليغة ومساجلات العاطفة والفكر بين أبناء البلد الواحد فضلا عن البلاد القصية ، ولكن الأمل فى دوام هذا الفن منوط بكثرة الكاتبين وإن قل نصيبهم من الكتابة . فإن ألفا يكتب عشرهم

الذى قال أنا ربكم الأعلى

للأســـتاذ على الطنطاوى

لبس ثيابه واستعد ولكن الباب لم يفتح ، فوقف وراءه يصغى فلم يسمع صوتا ، فضاق صدره حتى أحس كأن مرارته ستنشق ، وأن أعصابه ستتمزق ، فجعل يدور فى الغرفة وساعته فى يده ينظر إليها ، حتى فتح الباب ، وأقبل الحراس ليقودوه إلى المحكمة …

وكان يرقب هذه الساعة ويعد لها الدقائق والثوانى ، لا حباً بالمحكمة ورغبة فيها ، بل هربا من الوحدة وخوفا من لياليها ، فقد كان يمر عليه الليل طويلا ثقيلا ، وهو وحيد فى حجيرته (زنزانته) لا رفيق له إلا ذكرياته وأفكاره ، ولا مسرح لنظره إلا هذه الغرفة الضيقة ، يحدق فى جدرانها التى يسيل عليها هذا الضوء الأصفر الشاحب ، ويوهمه طول تحديقه فيه أنه يرتجف ويضطرب ، وتتراءى له ظلال غامضة لا تلبث أن تضح فيرى فيها صورة مشنقة منصوبة ، فيغمض عينيه عنها ويحاول أن ينام فتلاحقه هذه الصور وتزداد بشاعة وهولا… فيحس أنه مشرف على الجنون ، ويقوم إلى الباب يشده ويعالجه حتى تكل يداه ، فيسقط إعياء ويأساً … ولم يكن يتمنى إلا إنسانا يحدثه ، عدواً أو صديقاً يجد عنده صدى خواطره ، ورجع أفكاره ، ليقنع نفسه أنه لا يزال عاقلا لم يجن !

لذلك كان يجد هذه الساعة نعمة سابغة ، لأنه يلقى فيها أولاده وصحبه ، راكبين معه فى السيارة مقيدين مثله بالسلاسل والأغلال الثقال ، ولكن ألسنتهم طليقة فهو يستطيع أن يكلمهم ويكلموه ، وهو يلمس من خضوعهم له وإكبارهم إياه ما يثلج صدره ، ويعيد له ثقته بنفسه وأنه لا يزال (ربا) معبوداً ، وإن قيد وسجن ، ولا يزال له عباد مخلصون … لم تذهب المحنة سلطانه عليهم ، ألم تلق امرأة من أتباعه بنفسها تحت سيارة السجن لأنها لا تطيق أن ترى الرب … أسيراً مغلولا ؟ ألم يشهد عليه واحد من عبيده غاضاً بصره . فلما قال له الرئيس : أنظر فى وجهه .

وينقطع عن الكتابة تسعة أعشارهم أوفر أثراً من عشرين أو ثلاثين يتبادلون الرسائل أجمعين ، ومن هنا يرجى دوام هذا الفن الجميل فى عصرنا الحديث على الرغم من مواعيد التليفون ومقابلات المسارح وقلة الاكتراث بالرسالة الخاصة إلى جانب المطبوع والمنشور .

على أننا نحسب أن هذا الفن على جماله وإغوائه لا يستغنى عن التشجيع والاستبقاء ، وليس أدعى إلى استبقائه وإغراء القراء به من تزويدهم بالنماذج التى يلتذونها ويقبلون عليها ويستزيدون منها فقد يكون هذا الإقبال مدعاة إلى المحاكاة أو إلى ابتداع فن للمراسلة لا يتوقف على مرسل ومرسل إليه بل ينفرد به كاتب واحد يفتن فى الخطاب والجواب .

ولم يكن هذا التراسل المخترع بدعا فى العصور الأولى وهى العصور التى ازدهرت فيها الرسالة ولم يكن لأصحابها غنى عنها بالبرق والتلفون . فقد حقق شميدلر Schmeidler الباحث الألمانى أن رسائل أبيلارو هلواز قد انفرد أبيلار بكتابتها كلها ولم تشاركه فيها هلوار على ما هو مشهور فى الآداب الأوربية ، وعرض برتراند رسل لهذه الدعوى فى كلامه عن أبيلار فقال : « إننى لست من ذوى الاختصاص فى تمحيص هذه الدعوى ، ولكنى أرى أنه ليس فى خلائق ابيلار المعهودة ما يمنع قبولها ويجعلها فى حكم المستحيل .

فإذا جاز هذا فيما مضى فهو أقرب إلى الجواز فى العصر الذى نحن فيه ، ولا شك أن صدق الواقع أجدى فى كتابة الرسائل من صدق الفن أو صدق الإبداع . ولكن صدق الفن لا بأس به على العلات إذا كان فيه تعويض لجناية البرق والتليفون على نوع جميل من الكتابة تحيق به نذر الزوال

وليس أولى بتحقيق هذا الغرض المرجو من عمل كمال الأستاذ بدران ، ولعل إقبال القراء على جزئه الأول يعجل بظهور الأجزاء التالية وإضافة النماذج الجديدة إلى النماذج القديمة ، من مصادر شتى تفتح له أبوابها معرفته الوافية بالإنجليزية ، وهى لا تخلو من أوسع المراجع فى هذا الموضوع .

عباس محمود العقاد

صاح : لا أستطيع ، لا أستطيع .؟! فهل يسلمه هؤلاء ويدعونه يساق إلى الموت ؟ لا . واطمأن ووثق من النجاة ، ورأى الدنيا لا تزال على العهـد بها ، فالشمس مشرقة ، والبلد يعج بأهله ، والناس يذهبون ويجيئون ، ويبيعون ويشـترون ، ويضحكون ويمرحون ، وكان يخيل إليه فى وحدته أن الدنيا قد شملها الظلام الذى ملأ نفسه ، وأنها فقدت رواءها ، وغاضت منها بهجتها .

وسأل ولده : كم مضى من الشهر ؟ فلما أخبره نظر فرأى أنه قد مر على سجنه شهران فقط وقد كان يحسبهما عمراً طويلا ؟! وجحظت عيناه دهشة وسبح بنظره فى الفضاء ، لقد انساه هذان الشهران حياته الماضية كلها ، ومحوا منها أيام الحرية والعز والربوبية ، فكأنه ولد سجيناً مقيداً ، لم يكن قط السيد الذى يطاع ، والرب الذى يعبد ، وكأنه لم يكن له شعب يعيش به وله ، ويبذل الروح فى سبيله . ولا يريد من الدنيا والآخرة إلا رضاه

وأيقظه من ذهوله صوت الجندى يدعوه إلى النزول من السيارة ، فقد بلغت المحكمة ، فرأى الناس مزدحمين لينظروا إليه ويتسلوا برؤيته ، وكان يعرف أكثرهم ويعرفونه ، فأغضى وامتلأت نفسه حنقاً على الحكومة لأنها جعلت محاكمته فى اللاذقية حيث قام عرش ربوبيته ليراه الناس ، ويعلموا مصيره ، ولم تجعلها فى دمشق المدينة الكبيرة التى لا يعرفه فيها إلا القليل ورأى الناس متلهفين على إشباع أبصارهم منه ، والشماتة به ، كأنهم فى رواية تمثل على المسرح ، يريدون أن يأخذوا بحظوظهم من النقمة بها ليعودوا إلى دورهم ، ويصلوا ما انقطع من أعمالهم ، الجملة هكذا : والرواية رهان على رأسه بين النائب العام والمحامى أيهما أبلغ مقالا ، وأطول لساناً ، وأقدر على سرد مواد القانون . نعم سيعود الناس إلى دورهم ، إلا الرب ، فلن تبقى له دار يعود إليها !

وكان فى جلسات المحاكمة الأولى ممتلئا أملا ، واثقا بنفسه وبقيام شـعبه بنصرته ، ولكنه سمع فى هذه الجلسة شهادات أتباعه عليه ، والوثائق تنهال على عاتقه كأنها ضربات معول صلد على جدار من اللبن ... تضيق عليه باب النجاة ، وتسد طريق الخلاص ، فتضعضع وأوشك أن يموت فى نفسه الأمل .

وسمع النائب العام يتكلم ، ويطلب له الموت ، ففكر أن يثب إلى عنقه ، فيضع يديه على رقبته فلا يرفعهما حتى يخنقه وليصنعوا بعد ذلك ما يريدون ، أيقدرون على أكثر من الموت ؟ وتصور الموت ففزع منه وخافه ، لا ، إنه لا يريد أن يموت ... وسمع محامى الدفاع يقول كلاما سخيفا ، فأعرض عنه ، وأبغضه ، وماذا يقول المحامى وهو نفسه لا يستطيع أن ينكر شيئا مما اتهم به ؟

ودنت ساعة الحكم .

***

تلى كلام طويل ، لم يستطع أن يتفهمه ، لأن ذهنه كان معلقا بكلمة واحدة ، هى التى تحدد مصيره ، قد حبس لها أنفاسه ، ووقف لها دقات قلبه ، وخال كل ثانية فى انتظارها دهراً ، فلما سمع هذه الكلمة خارت قواه ، ووهى عزمه ، وسقط على كرسيه لقد كانت هذه الكلمة : الإعدام[1] !

ورأى الناس يثبون إليه ، ويتدافعون ليحدقوا فى وجهه ، والمصورين يوجهون إليه آلاتهم . ثم شعر كأنه انفصل عن هذه الدنيا ثم ابتعد عنها ، حتى رآها وهى تدور من حوله ، وقد تداخلت مشاهدها ، وخفيت معالمها ، ورأى الناس كأشباح تتحرك خلال ضباب الأوهام ، وأحس بالقيود توضع فى يديه ، وبأنه سيق إلى السيارة فألقى على مقعدها ، وسمع قهقهة كأنها صاعدة من جوف جب عميق ، ولغطاً فيه ذكر اسمه وذكر المشنقة . ثم أخذه الدوار ، ولم يعد يدرك شيئا .

ولما احتوته حجيرته أحس أنه انحطم وسحقت عظامه ، كأنما مشت عليه السالف[2] ... لقد حكم عليه بالإعدام ... ولكن الليل قد انقضى وطلع الصباح ، ثم نزل الليل مرة ثانية ، وهو حى كما كان من قبل الحكم ، إلا أنه لم يعد يخرج إلى المحاكمة ، ولم يعد يرى أولاده ولا صحبه ، وكانت الأيام والساعات تمر به فارغة واسـعة كأنها أبهاء قصر مهجور ، وقد كانت له أعمال يفكر فيها كما يفكر الناس فينسى بها مر الوقت وكر الزمان ، فأمسى وليس فى حياته إلا الانتظار ، وإذا كانت ساعة انتظار النعمة تبدو طويلة مملة ، فكيف بمن ينتظر الموت ؟ وكان يود لو يتحقق الأمل بالعفو الذى وعده به محاميه ، أو يعجل عليه بالموت

(١) لاعدام بهذا المعنى خطأ شائع

(٢) السلفة هى ما يسمى المدحلة فى الشام ووابور الزلط فى مصر

ليستريح من هذا القلق الذى هو شر من الموت ، إذ كان يجهد خياله أبداً ليتصور ساعة الإعدام ، حتى ليحس كل لحظة شدة الحبل على عنقه ، وحرارة الرصاص فى صدره ، فكأنه كان يموت فى كل لحظة مرة .. ولكن أشد ما يزعجه من الموت هذه الفضيحة ، وأن يراه ذليلا مهينا من كان يراه بالأمس سيداً وربا ، ولو جاءه الموت طبيعيا[1] كما يموت الناس لما آلمه هذا الألم، أما أن يتحكم فيه بشر مثله ، وأن يملك نزع حياته من بين جنبيه وهو لا يملك منحها ولا ردها ، فذلك ما لم يستطع حمله ... وفكر فى العفو ، فرآه سهلا قريباً ، أنه فى يد رجل مثله مخلوق من لحم ودم ، لا يكلفه إلا أن يكتب بقلمه ثلاث كلمات فى ذيل العريضة التى قدمها محاميه ، فهل يضن بها ؟ وهل تهون حياته هذا الهوان حتى لا تساوى مشقة كتابة ثلاث كلمات ؟

وتنبه ضميره فذكر كيف كان يستهين هو بحياة الناس ، وذكر كم أزهق من أرواح ، وكم أهلك من نفوس ، وكيف كان يدع طعامه فيقتل الرجل ثم يعود ليتم طعامه كأنه لم يصنع شيئاً ، وكيف كان يقتل وهو يتحدث ثم يرجع إلى حديثه لا يقطعه ، لقد كان فيمن قتل أزواج عاشقون لهم نساء ، وآباء لهم أولاد ، وشباب لهم أمهات ، فما فكر فى نسائهم ولا أولادهم ولا أمهاتهم فهل يفكر أحد اليوم فى زوجاته وأولاده ؟

***

ومرت به الأصباح والعشايا وهو يرتقب وما من جديد وانحصرت حياته فى النوم والطعام والتفكير وما ينام وإنما يهده اليأس فيلقى بجنبه على الفراش يرى مروعات الأحلام ، وما يأكل وإنما يضعفه الجوع فيدس فى فمه لقيمات تقيه الموت ، وما يفكر وإنما يرى صور ماضيه ماثلات على جدار الغرفة ، فينظر إليها كما ينظر المرء إلى فيلم فى سينما .

فجعل ينظر إليه ...

رأى (جوبة البرغال) هذه القرية التى تغلغلت فى جبال العلويين حتى وجدت أقفر بقعة فيها وأوحشها وأبعدها عن العمران ، فى فجوة من الصخر ، يطيف بها جبل قائم فيطوقها من جهاتها الثلاث ، كأنه حصن حربى فلا يدع لها إلا بابا ضيقا يطل منه جبل آخر ، يمد إليه (خشمه) فينحدر إلى الفجوة حتى إذا توسطها اضطجع وتمدد ، فاستقرت الجوبة على عنق هذا الجبل النائم ، يحميها كتفه من هنا ومن هناك قلمات الصخر الراسيات من الجبل المستدير ، وذراه الشامخات الأعالى ، هذه هى عاصمة ملكه ، ومعقله ومثوى عرشه الربانى ... التى ظن أنها ستعصمه من جبابرة الأمس ومن عفاريت الجن ، ومن القنابل الطائرة والنازلة والذرية . . ثم تمده بالقوة والأيد حتى يقرأ منها على الدنيا ، مرة ثانية ، كتاب الذعر والخوف والاغتيال ، الذى كتبه من قبل فى هذه الجبال وهذه التلاع اتباع الحسن بن صباح وسنان شيخ الجبل ...

وتبدل المشهد وعاد به إلى الماضى ، إلى أول عهده بالدنيا يوم كان فتى غراً يرعى الأغنام فى هذى التلاع ، لا يحمل هما ، لأن الهم يحتاج إلى فكر ولم يكن له رأس يفكر ، ولا يطمع فى شىء إلا لقيمات تسد رمقه وتشد صلبه ؟ وفراشاً من القش يريح جنبه ألا ليت هاتيك الأيام قد دامت ، ودام الفقر والبؤس ، ولم يعرف طريق المجد الذى يوصل إلى المشنقة ، وذرفت من عينه دمعة ، فأسرع فمسحها وتلفت يخشى أن يراه أحد وهو يبكى ، وقد كان أشد شىء عليه أن يسخر منه اليوم عباده بالأمس ، فلم ير أحداً فاطمأن وعاد يستعرض ، (فلم) حياته على مهل ، فرأى أول فصل فى كتاب مجده ، وأول صفحة من شعر بؤسه ...

وكان ذلك فى يوم بارد من أيام الشتاء ، أقفرت فيه الأودية وسدت المسالك ، وبدت الدنيا كلها فى ملاءة بيضاء من الثلج ، ورجع الرعاة إلى القرية ، وعكف الناس على البيوت ، وهبط فيه القرية شيخ علوى ذكى مشعبذ ، فمر به فرآه مغمى عليه ، وكان به داء الصرع . فصحاه وأخذه معه ، فعلمه فنون الشعوذة ، وأقنعه أنه المهدى المنتظر ، وطفق يمخرق به على العامة من أهل الجبل ، وأهل الجبل كلهم من العامة ، وهم أجهل من الأنعام ، وأوحش من الوحوش ، يكفرون بالله ويؤمنون بالمهدى ، وينكرون الوحدانية ويقولون بالتقمص ، ويتسلون بالقتل ، ويدينون بالنهب ، ويتبعون شريعة الذئاب ، فسرعان ما آمنوا به وصدقوه والتفوا حوله ، وكان ذلك سنة ١٩٣٣ .

ويتغير المشهد فيراه وقد قبض عليه وعلى شيخه وحوكما وسجنا ، ثم نفيا من الأرض ... ثم يعود وكله حنق على الشيخ

(١) طبيعيا لا طبيا كما يقال فى هذه الأيام .

من الأعماق

للاستاذ سيد قطب

— ١ —

هأنذا هارب من الدار ، يا توت[1] ، لأبعد عن مواقع خطاك ، وأهرب من رؤى مصرعك ؛ ولكن كيف أهرب من نفسي ؟ الصور ، والخيالات ، والمشاعر المكنونة ، والرؤى الحية … أولئك أعدائي … وهم معي بين جنبي . يا توت — وأنت معنا !

رصاصة صماء ، ويد بلا قلب … وتنطفيء الشعلة ، ويطوى سفر ، وينطوى عالم … وبأيسر من هذا تم تلك النقلة التي تدير الرءوس هولا . والأحياء مع ذلك تعيش ، وترجو ، وتأمل … ألا ما أقسى السخرية البلهاء !

كلب !

ما أيسر ما تلوكها الألسن ، وما أهون ما تتلقاها المدارك ، وما أقل ما تحفل بها المشاعر ! ولكن حين يستحيل هذا اللفظ إلى عشرات من الصور والذكريات ، وعشرات من الرؤى والطيوف ، وعشرات من الاهتمامات الوجدانية والمشاعر الحية . هنا يستحيل كل حرف فيها وكل صوت من مقاطعها ، إلى أفاعي مسمومة تنهش القلب ، وتجرح الضمير ، وتقتات من دماء الأحياء.

دماء! ويحي! ما الذي دس هذه اللفظة في تعبيري الآن؟ دماؤك أنت — يا توت — تلك التي خضبتك وعفرتك ! ويحي! لم أنكأ نفسي هكذا ، وأتكيء على جرحي بقسوة؟ إنها صورتك الأخيرة يا توت لا تبرح تواجه خيالي ، حين يفرى جوانحي ألم ضار مسموم

(١) « توت » كلب لطيف نظيف ذكي . قتلته الحكومة وسرقت طوقه ، بيد أحد « الشاويشية » الأجلاف الذين تطلقهم يتصيدون كلاب الناس بالرصاص . كما تطلقهم أحيانا يتصيدون شباب الوادى وكل ألف من هؤلاء الأجلاف لا يحمل نفوسهم من « الشعور » عشر ما كانت تحمله « نفس » « توت » المسكين . وما كان يمكن أن تخطىء عين فتطنه كلبا شارداً وقد قتل على باب الدار وسلب قاتله طوقه إدارى جريمته . ومضى ذلك الوحش الجاف ، وترك قلوبنا تدمى … وقد كان المتبع أن تجمع الكلاب في عربة ليعرف أصحابها عليها ولم تكن هذه الطريقة الوحشية المزرية بالانسانية تتبع فماذا جرى ؟

وعلى الحكومة وعلى الفرنسيين وعلى الدنيا كلها ، فبدأ بالشيخ فقتله ، وأراد أن يمد يده إلى الفرنسيين فاذا هم يمدون إليه أيديهم يعرضون عليه المال والعتاد والألوهية في الجبل على أن يكون عبداً لهم …

فصار المهدى رباً[1] …

***

وكر الفلم فرأى هذه الليلة التي أعلن فيها ربوبية ماثلة أمامه : هذا هو القائد الفرنسي ، يزوره متذللا خاشعاً ويقول لقومه : (هذا هو ربنا وربكم) ، ثم يطلب إليه أن يطلع الشمس في نصف الليل ، فيأخذ الرب الجديد مصباحا في يده فيلوح به ، فيرى الجبليون الشمس ساطعة على الجبل الغربى ، أطلعها الجنود الفرنسيون بالأنوار الكاشفة ، و (البطاريات) القوية ، لما رأوا المصباح يتحرك .

وتتتابع الصور ، أمام عينيه ، فيرى (الرب) يتخذ أنبياء وملائكة ، ويتزوج النساء بالعشرات ويأخذ ما يطيب له من الأراضي ، ومن يستحلى من النعاج ، ويقتل ويضرب ويحبس ، حتى إذا انتهت الحرب ، وأحس الفرنسيون أن أجلهم قد دنا ، أقبلوا عليه يحالفونه على أن يمدوه بالمال والسلاح ، ويجعلوه ملكا على الشام كله كما جعلوه ربا على الجبل ، وتمت المحالفة ، وصار ملك الشعب الحيدرى الغسانى (؟!) يسن له القوانين ، ويشرع له الشرائع ، ويجبى الضرائب ، ويولى الولاة … ويفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل !

وتمر به صور أخرى من حياته ، فيرى الوطنيين يقبلون عليه يسألونه أن يقبل عليهم ، وأن ينفض يده من الفرنسيين ، فيأبى ويمتنع . أيدع أحلافه الأقوياء لقوم لا حول لهم ولا قوة ، أيعود واحداً من هذه الأمة نائماً وقد صيره الفرنسيون رباً ؟ أيرد ما اغتصب من الأراضي ويحمل وزر ما اجترم من الجرائم ؟

كلا . إنه لن يصافح اليد الوطنية ، إن الفرنسيين لا يمكن أن يخرجوا من الشام أبداً …

(لها بقية) علي الطنطاوي

(١) ولم ينفرد بذلك الفرنسيون ، فالانكليز أيضا يستطيعون أن يعملوا (المهدى) ربا ، ليكون لهم عبداً

لقد تماسكت : وتماسكت ، وحاولت أن أغلف المسألة كلها بغلاف من عدم المبالاة . ولكن حين حملتك — يا توت — بين يدى جثة جريحة دامية ، لأواريك القبر الخبىء فى جوف الثرى . خذلتنى قواى كلها . وبدا لى التماسك سخافة كبرى !

ونمت هناك — يا توت — فى مقرك الأبدى الذى سويته لك بيدى الراعشة ... ولكن أنى لى أن أطيق تلك الصورة الواقعة المستحيلة : إن عينى لن تعود فتراك أبداً. إن أذنى لن تعود فتسمعك أبداً . إن هذا الجسد الهامد لن يعود فيتحرك أبداً ... إن شيئاً مما كان كله لن يكون أبداً ... مستحيل مستحيل ذلك الواقع الذى لن يزول !

((*))

توت . توت . توت !

سأقولها ، وأقولها ، وأقولها . فلا تجيب أبداً . وسأعود فلا أجدك فى الحديقة ، ولا فى الشرفة ، ولا فى الردهة ، ولا فى حجرتى ، ولا فى المطبخ ، ولا فى المكتب ، ولا فى مأواك ، ولا فى مكان ما على ظهر هذه الأرض الدوارة ... ؟

وحينما يحين موعد انطلاقك من مأواك فى الصباح ، وموعد غدائك فى الظهر ، وموعد لعبك فى الغروب ، وموعد مبيتك فى المساء ، لن تنبح ، ولن توصوص بعينيك ، ولن تبصبص بذنبك ، ولن تتواثب على أقدامنا وأحضاننا ، ولن تروم احتجاجاً ولن تزق شكراناً ، ولن « تصوصو » شكوى . ولن يكون شىء من ذلك أبداً ... ؟

وحين أشتاق إليك كالطفل الحبيب ، وحين أذهب لأطل عليك فى مخدعك قبل أن أمضى صباحاً . وحين أتوقع أن تطلع لى من حيث لا أعلم عند عودتى ظهراً وحين أجلس للطعام فأسرع لأخلص لك العظم المحبوب . وحين أخشى أن تعبث بكتبى وأوراقى التى تحبها حباً جماً ... عند ذلك تكون أنت — يا توت — هنالك فى تلك الحفرة الصغيرة المنعزلة التى سويتها لك بيدى !

وكرتك النطاطة ستظل هامدة على الأرض ، ليس فيها من حراك . وصحفة طعامك ، وآنية شرابك ، وبيتك الخشبى الصغير كل أولئك لن يعود أحد يسأل : أهى مليئة أم خواء ؟ !

ويدخل الليل ، ويلفنا الظلام ، وتغمرنا الوحشة ... وبين فترة وفترة يشق السكون « نباح » هنا أو هناك ، فأنسى أنك هناك وأتلفت بنفسى المتطلعة إلى همهمتك الحبيبة على أطراف ثوبى أو قدمى بأنيابك الصغار ؟

ويصبح الصباح ، ويمتع الضحى ، ويميل الأصيل ، ويدخل الليل . وتتكرر الأيام وأنت أيضاً هناك . ساكن فى ذلك المأوى القريب ، تفصلنى عنك الآباد ؟

يا دنيا !

لم كانت هذه السخرية الكبرى سخرية الحياة ... للفناء ؟ !

— ٢ —

لن أصدق ... لن أصدق !

لقد مضى أمس الأول . ثم مضى أمس . ونحن هؤلاء اليوم . فلم لا تجىء يا توت ؟

إنك قد مُتَّ ! أعرف ذلك . ولكن ! لم لا تجىء ؟ !

اليوم هو الجمعة . وأنا هنا فى الدار — يا توت — ألا تعلم ؟

لقد نحوت فى النوم ، فمالك لم تجىء لتوقظنى بهمهمتك ؟ مالك لا تحاول القفز إلى سريرى ، مالك لا تروم محتجاً لأننى لم أستمع إلى ندائك ؟ مالك لا تملأ الحجرة نباحاً وقد يئست من إصغائى إليك ، فإذا تحركت حركة واحدة عدت تزق فرحاً وابتهاجاً بصوتك الودود الجميل ؟

أم لعلك جئت وهمهمت واحتججت ويئست ، ثم انصرفت — لتعود — إلى المطبخ ، لتتناول نصيبك اليومى من العظام وقد أحضرته لك فى الميعاد صديقتك — رقية — التى تحبها وتحبك ، وتلاعبها وتلاعبك ، وتملأ أوقات فراغها وأوقات خدمتها كذلك مرحاً ووثباً وصياحاً وزياطاً وحيوية ، كما تملأ حياة الدار جميعاً !

لا . لست فى المطبخ . فهاهى ذى شقيقتى هناك وحيدة ، ساهمة ، كئيبة ، مفردة ، موحشة ... هى لا تحاول اليوم أن تحسم الخلافات التى تقع بينك وبين « سوسو » فى توزيع الجلد والعظام وزوائد اللحوم . أنت لا ترفع صوتك احتجاجاً لأن زميلك قد عدا على نصيبك ، وهو لا يعوء صارخاً لأنك عدوت على نصيبه . إنه هادىء ساكن . أم لعله حزين !

ألا تكون فى الحجرة الأخرى — يا توت — تعابث صديقتك الأخرى شقيقتى الصغيرة ؟ تشد منها كرة الخيط المدلاة وتختفى بها تحت السرير فلا تحس بك ولا بها إلا أن تشد خيطها فلا ينشد . فتعلن سخطها عليك ، وتحذيرها إياك . حتى إذا نظرت إلى عينيك الجميلتين ، ورأت فيهما كل معانى الشيطنة

والبراءة ، داعبتك باللفظ الذى تعرف ، وبالصوت الذى تفهم ، وبالإيماءة التى تجيب ؟

هأنذا يا توت فى حجرة المكتب ... يا توت ! تعال يا توت ! ألا تجىء أيها الشيطان الصغير ؟ تعال فالشمس التى تحبها تملأ الحجرة ، والورق الذى تهيم به ينتظرك للشد والتمزيق .

أوه ! رحمتك يا ألله !

إن آثار فنجانة القهوة التى سكبت من يدى على المكتب ، وأنا أضطرب للنبأ الأليم ، نبأ مصرعك الوحشى الغادر ، لا تزال . لم يزلها أحد منذ ثلاثة أيام ! وهل بقيت فى أحد هنا بقية يا توت ؟

الفراغ ! الفراغ !

ذلك الخواء الوحش العميق المترامى الأطراف ، ذلك المخلوق الـكئيب الهائل .

ذلك الذى تراه على امتداد البصر وآماد الآفاق .

والصور ، والرؤى ، والأطياف ، والأشباح !

تلك الحيات الكامنة فى الضمير ، تنهش القلب ويضم عليها جوانحه ، وتسمم الحياة والحياة بدونها محال .

والذكريات !

أولئك اللواتى يثبن كلما سكن الحس ، وساد الصمت . ولفنا الظلام : ظلام النفس أو ظلام الأرجاء .

وإنا لنهرب إلى أنفسنا — يا توت — فنلقاك هناك . ونهرب من أنفسنا فنلقاك هناك . ونهرب إلى الناس فنحدثهم عنك ، وحينما انجر حديث قفزت إليه من بعيد ، واندست ذكراك فى مجراه .

يا توت لم اعترضت طريقنا . مادمت لا تنوى إلا عمر الأزهار؟

العذاب ! العذاب فى هذه الحياة !

— ٣ —

أبداً لست هنا يا توت . ولو كنت هنا ونحن عائدون هكذا إلى الدار جميعاً ، لما وسعتك الحديقة كلها من الفرح ، ولملأتها جريا ووثبا ومراحا ، ولجئتنا عن أيماننا وعن شمائلنا ، ولأخذت علينا طريقنا وراء وقداما ، ولتواثبت على صدورنا وأقدامنا كالبرق الخاطف أو القذيفة المندفعة ، ولملأت الدار حركة وضجيجا نتابع بهما حركتك وضجيجك ، ونهدىء بهما هذه الشعلة المتوقدة فى جوارحك . ولكنك لست هنا يا توت .

فلنخرج صامتين لا نلتفت وراءنا لنرجعك إلى الدار فلا تتبعنا . ولندخل صامتين يجلل الأسى وجوهنا ، وتغشى الكآبة نفوسنا ، ولنتخاطب فيما بيننا همسا من الكمد ، ولتتجاذب عيوننا وقلوبنا بالهم الذى يغمرها جميعا .

أجل يا توت . ولقد تم على شفاهنا ألفاظ قاموس كامل كان لك أنت وحدك ألفاظ التدليل والتنبيه والزجر والتخويف والنداء والاسترضاء . فقد انطوى ذلك كله ، وعادت ذكراه تلذع أفئدتنا لذعة الجمر كلما هجست فى الضمير .

ووددت يا توت — لو أنساك ! فقد كدت أفقد كل مايعرف عنى من اتزان وتماسك ؛ وتفزعت أعصابى فلست أنام ، وفى جوانحى ذلك اللذع الذى لم يعد يطاق ... ولكن لا أريد أن أنساك — يا توت — لا أريد أن أفقدك كلك . فعزيز على نفسى أن تفرغ من كل شىء حتى من لذعة ذكراك !

— ٤ —

كنا هنا على المائدة — يا توت — فأين أنت ؟

لست إلى جنبى هنا باسطا يديك على الأرض فى انتظار نصيبك فى النهاية ، وعيناك تلتمعان بكل ما تريد أن تقول !

عيناك الذكيتان المعبرتان ، لقد كانت بيننا وبينهما لغة مفهومة ؛ كما كان بينك وبين أعيننا تلك اللغة المفهومة بلا أصوات !

ولكنهما أطبقتا — يا توت — وانطفأت فيهما تلك الشعلة من الذكاء الحاد ، والحس المرهف ، والإخلاص الودود .

أطبقتا . أطبقتا إلى الأبد . وهذه هى قسوة الموت ... العدم . العدم المطلق . المطلق إلى غير حد ... يا للقساوة الصماء !

وأسرع فى ازدراد طعامى — يا توت — لا لأخلص لك نصيبك المعلوم ، ولكن لأهرب من الخيال المفزع .

لا . لا . لاطاقة لى بهذا العذاب الدائم المتكرر فى كل موضع قدم فى هذه الدار .

فى كل لفتة ذكرى ، وفى كل خطوة صورة ، وفى كل خطوة عذاب . عذاب قاس ممزق لذاع

ولكننى أهرب إلى الخارج ، فتصاحبنى فى كل موضع قدم ، وفى كل خطرة فكر ، وفى كل لفتة بال .

ياتوت يا توت . لم — يا بنى ! — ألمت بنا فى الطريق؟!

يا رب . يا رب : رحمتك يا ألله !

سيد قطب

يا ليـــــل . . . !

للأستاذ الأسدي محمد خير الله

– ٢ –

المذهب السادس :

وقبل أن نمضي في تحقيقنا نورد هنا مذهبا لنا سادسا ، كنا على أن نجهر به قبل أن نتولى البحث بما يفرده العلم من حجج ، أى أننا كنا نتحسس به ، كما هو شأن أرباب المذاهب المتقدمة ، دون حجة ولا بينة ، ذلك أننا كنا نرى فى « يا ليل » مجرد إرسال النغم ، أو قل : تجسيده بألفاظ لا معنى لها ، شأن موسيقى اليوم لدى إرسالها بالنغم : لى للى لى لم .

والبحث الذى نستقبله كفيل أن يعلم أن الكلمة تنتمى إلى أصل ذى معنى ، ثم استعملت لهذا التجسيد .

نعم كثر ما جاء فى الغناء من ألفاظ لا معنى لها ، غير أن « يا ليل » ليست من قبيلها . ومن هذه الألفاظ : « عل يادر يادر يادر يابو العبيسية » ، ومنها « دلى يا دلى دلعونا » ، ومنها ما يستعمله العراقيون فى مقام البنج كاه — كما يحدثنا الصديق الطبيب رجائى — فى قولهم : « هى داد بداد هى جان دلى دلى داد

فالكلمة إذن ذات معنى مجهول سيأتى كشفه كما كشف لنا الأب بخاش[1] عن سر « الله يسوى دوصى دوص ها بيباها » الترتيلة المستعملة فى أعراس حلب دون غيرها .

مذاهب أخرى :

وهناك مذاهب سمعناها من شتى المصادر لا تنتمى إلى شىء مما يحفل به العلم ، وهى أن أصل « يا ليل » يا ويلى « وشفيعه أن الحزن من مستلزمات الغناء العربى ، ولا يزال الملويون يغنون :

ويل ويــلى بوطنجو عـــلا جنبو قريبينه

أو أن أصلها يا لآلئ جمع لؤلؤ ، كأنما ينادى أحبابه الجميلين الشبيهين اللآلى . أو أن أصلها يا آلى أى يا أهلى . أو أن أصلها يا لى يالى أى يا من أنت لى . أنشدنى زجّال لبنانى فى دار الأستاذ الفيكونت دى طرازى :

قلتلا شـــو اسمك قالـــت لولـــو
قلتـــلا · لى الــــى قالت لى : لا لا

وهو من تلاعب البديعيين ، وقد سبق إليه .

أو أن أصلها يا أليل بمعنى يا أنينى مما أبدلت نونه لاما ، كقول ابن ميادة :

وقولا لها ما تأمرين بوامق له بعد نومات العيون أليـل

أو أن أصلها يا ليل بكسر اللام : صنم أضيف إليه ، كعبد يغوث وعبد مناة وعبد ود استعملت بعد التحريف للغناء ، لأنه ربما يكون إلها للحب كما كان لليونان إله له . أو أن أصلها هلل العبرية ، بمعنى سبح ، وقد سميت مزامير داود تهليم ، أو تصدر جل أبياتها بهللويه أى : سبحوا الله .

تحقيقنا في يا ليل :

لنمض بعد ما تقدم إلى مهمتنا فى التحقيق ، ولنتساءل : يا ليل : وأين يا ترى تردد يا ليل ؟ أليست تردد فى مطلع هذا الضرب الغنائى المسمى لدى العامة بالموال ؟ حسن . لنبحث الآن عن الموال فى معاجمنا العصرية التى فسحت بعض المجال للمفردات العامية . ها هم أولاء الأساتذة لويس المعلوف فى المنجد ، وفؤاد البستانى فى منجد الطلاب ، وحليم دموس فى قاموس العوام ينصون فى معاجمهم هذه على أن الموال والجمع المواويل محرف المواليا . لنركن إذن إلى هذا النص ، ولو جدلا ، ثم لنتساءل : ما المواليا ؟ ذلك ما يجيب عنه الزبيدى اسمع مؤدى ما ينقل عن حاشية الكعبية للبغدادى ، وإذا ذكرت البغدادى لا أتمالك من إبداء عاطفة الزهو والاغتباط ، إذ أنه احتفظ فى آثاره بكثير مما وعته الخزانة العربية الضائعة . نعم لنسمع صدى البغدادى يقول : المواليا نوع من الشعر ، اخترعه أهل واسط من مدن العراق ، اقتطعوا من بحر البسيط بيتين ، وقفّوا شطر كل بيت بقافية ، تعلمه عبيدهم والغلمان ، وصاروا يغنون به على رؤوس النخل لدى جنيه ، وفوق مراقى سلالم البناء ، ولدى سقى المياه ، وفى

(١) أنشودة العرس فى العهباء ط لبنان .

نحو هذا من الأعمال ، وكانوا يرددون آخر كل صوت : « يا مواليا » إشارة إلى سادتهم ، فسمى بهذا الاسم ، ثم استعمله البغداديون فلطفوه حتى عرف بهم دون مخترعيه إلى أن شاع .

أقول : ولعل فى المطلع القديم المشهور الماعا إلى ما ذكر :

القول قول العجم : آه يا مواليا يا بيض لا ترحلوا ضلوا حواليا

ثم اسمع مؤدى ما يحدثنا به زيدان[1] : وفى العصر المغولى الممتد من القرن السابع الهجرى إلى القرن العاشر وضع ضرب من الشعر العامى يقال له : المواليا ، كان فى بغداد .

وها هو ذا ابن خلدون يقول[2] : وكان لعامة بغداد أيضاً فن من الشعر يسمونه المواليات ، وتحته فنون كثيرة ، يسمون منها القوما وكان وكان ، منه مفرد ومنه فى بيتين ، يسمونه دوبيت على الاختلافات المعتبرة عندهم فى كل واحد منها ، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان ، تبعهم فى ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب ... بمقتضى لغتهم الحضرية .

ثم يمضى ابن خلدون فى سرد طائفة منها « مجتزىء » بذكر واحد :

طرقت باب الخبا ، قالت من الطارق ؟

فقلت : مفتون ، لا ناهب ولا سارق

تبسمت لاح لى من ثغرها بارق رجعت حيران فى بحر أدمعى غارق

والأبشيهى[3] يعقد فصلا لمختارات المواليا ، نورد منها :

وقد أوعدونا الغضايا أننا نخلو فى ظل بستان حافف بالتمر نخلو

والظل من فوقنا قد بلنا نخلو ومن كلام الأعادى قط ما نخلو

والبستانى[4] يتحدث عن المواليا : وفى أصل المواليا أقوال أشهرها أن هارون الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم أحد بشعر ، فرثت إحدى جواريهم جعفرا بشعر غير معرب ، حتى لا يعد شعراً ، وجعلت تقول بعد كل شطر يامواليا ، قالت :

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس

أين الذين حموها بالقنا والترس

(١) تاريخ الأدب السطر ٢ جـ ٣ س ١١٧

(٢) المقدمة الخيرية س ٣٤٩ .

(٣) المستطرف ط المحمودية ج ٢ س ٢٨٦ .

(٤) الالياذة س ١٥٢ .

قالت : تراهم رمم تحت الأراضى الدرس

سكوت ، بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

قال الأستاذ ويل well[1] وهو أول ما عرف من الموال .

وقال مؤتمر الموسيقا ، يقال إن أول ظهوره كان فى بغداد ، بعد الفتك بالبرامكة ، قال الجلال فى شرح الموشح (ثم ذكر القصة المتقدمة وزاد عليها) :

قيل إن الرشيد حينما بلغه ذلك دعا الجارية ، وأراد معاقبتها على مخالفة أمره ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أنت منعت رثاهم بالشعر ، وهذا ليس بشعر لأنه لا يجرى على الفصيح ، فاقتنع

والمواويل نوعان : الخضر والحمر ، والنوع الأخير شائع فى صعيد مصر ، ويمتاز بالاكثار من التغيير فى ألفاظ قوافيه حتى تتجانس[2] .

وأعاريضه يشبهها ضربها ، وهى فاعلن وفعلن وفعلان[3] .

والأستاذ ويل well[4] يطلق كلمة « موال » « لا » « مواليا » حين سرده بعض المعلومات المتقدمة ذاهبا إلى أن الاسمين لمسمى بعينه وأن الثانى محرف الأول — على ما نتصور — ثم زاد : والموال هو أحد الفنون السبعة المعروفة اليوم فى الأغانى الشعبية بل هو أكثرها شهرة ، تصادفه فى كل مكان من العراق حتى مراكش ، ومنشأه المدن خلاف العتابا الذى نشأ فى الصحراء ، ويجوز فيه استعمال اللغة الفصحى ولغة المحادثة ...

ويكون غالباً من أربعة أشطر أو خمسة أو سبعة .

والقافية فى الأول واحدة ، أو يشذ عنها الشطر الثالث فقط

وشاع استعمال ذى الأشطر الخمسة فى مصر وتلمسان ، والقافية فيه واحدة دون الشطر الرابع ، ويسمى بالموال الأعرج ، وتلمسان تسميه بالحوفى . ومن الطريف أن نشير إلى أن ابن خلدون ذكر هذا الاسم وعده من فروع الموال ، ولكن طبعة بولاق استبدلته بالقوما .

أما ذو الأشطر السبعة فيدعى بالموال البغدادى أو النعمانى

(١) الموسوعة الاسلامية الفرنسية ١ : ٤٧٤ .

(٢) مؤتمر الموسيقا العربية ص ١٧ .

(٣) ميزان الذهب للهاشمى ص ١٥٢ .

(٤) الموسوعة الاسلامية الفرنسية ١ : ٤٧٤ .

ويطلق مايسنر meissner عليه إسم الزهيرى « بالإمالة » أو الزُهيرى كما هو اسمه فى بغداد ، والقافية فيه قافيتان ، فالأشطر الثلاثة الأولى بقافية ، والأشطر الثلاثة الأخرى بقافية مغايرة ، والشطر الأخير يرجع إلى القافية الأولى .

أما شهاب الدين فى سفينة الملك[١] فيسمى الموال المخمس بالأعرج ، والمسبع بالنعمانى مقتصراً على ذلك .

وعند جميع المحققين أن الفنون السبعة (المتقدمة) منها ثلاثة معربة أبداً ، لا يغتفر اللحن فيها ، وهى الشعر القريض والموشح والدوبيت ، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً وهى الزجل والكان وكان والقوما ، ومنها واحد هو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو المواليا ، وقيل : لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة ، فان هذا من أقبح العيوب التى لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعا بمفرده ويكون الملحون فيه ملحونا لا يدخله الإعراب ، وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحلى فى ديوانه وسماه بالعاطل الحالى والمرخص الغالى[٢] .

* * *

انتهى حديث المصادر . ومنها يتضح صحة ما ذهب إليه معجميونا المعاصرون من أن الموال من المواليا ، يؤيده :

١ — التقارب اللفظى بين الموال والمواليا .

٢ — كون النظم فى كليهما تعتوره العامية .

٣ — كون الوزن فى كليهما من بحر البسيط .

٤ — كون أحكام القافية فى كليهما واحدة .

٥ — كون الأعاريض فى كليهما يشبهها ضربها .

٦ — كون الأعاريض وضربها فى كليهما فاعلن وفعلن وفعلان .

٧ — أن فى كليهما لازمة تردد : هناك يا موالى وهنا يا ليلى

٨ — أن المواليا والموال للغناء .

٩ — الغناء فى كليهما مرسل .

---

(١) ص ٣٨١ .

(٢) والموال هو شطرات من بحر البسيط غالبا ويرتجل تلحينها مع عدم مراعاة أحد الأوزان الموسيقية ، بل يراعى فيها المقامات . مؤتمر الموسيقى العربية ص ١٦٤

(٣) المستطرف ط المحمودية . ٢ ، ص ٢٧٧ .

١٠ — أن كليهما مصدر بيا .

١١ — إطلاق الموسوعة الإسلامية كلمة المواليا .

فاذا كانت هذه القرائن كفيلة أن تقيم الدليل على أن الموال من المواليا كان من الحق أن نحكم أن لا زمة هذا لا زمة ذاك ، وبعبارة أوضح أن « يا ليلى » تحدرت من يا موالى محرفة مطورة تطور الطبيعة حافر الفرس من زعانف السمك ، ما فى ذلك عندنا من ريب .

فالموال إذن من المواليا ، لا فعال من موله بمعنى صيره ذا مال كأنما يمول صاحبه — كما يذهب الزميل الأستاذ أحمد إبرى — ولا أصله مؤول ، لما أن القافية الأخيرة تؤول إلى القافية الأولى — كما يذهب الصديق الطبيب فؤاد رجائى —[١] .

وظنى أن لازمة الشرقاوى « يابابا » أو « يابابای » عدول أتى به الأشراف أو غير الموالى ، بعد أن تبوأ الموال مكانه فى الغناء العربى ، فكأنما أقاموا أباهم مقام المولى .

سبيلنا الآن بعد أن بلغنا غايتنا أن نعقد الصلة بين يا موالى ويا ليل — إن كان ذلك متاحا — الحقيقة أن كرور العصور وكثرة التداول طمسا معالم الأصل فى يا ليلى ما خلا النداء واللام والياء فبعد الشبه ، حتى لا تكاد تتوسم فى هذا الفرع ملامح الأصل إذ ليس ثمة لون من ألوان الاشتقاق المعهود فى اللغة يصار إليه ، الأمر الذى يجعل الملتمس من وراء الطاقة ، وإن كانت إجابة فانما هى ضرب من الظن والتخيل ، إلا أن نذهب إلى أنه اشتقاق على غير حدود الاشتقاق القياسية ، بل ما لنا نطلق كلمة الاشتقاق وللاشتقاق حدود ، لنقل : هذه وتلك محرفة بعامل الزمن وبعامل كثرة الاستعمال ، كما هو شأن هذه العاديات فى المتاحف ، وأجدنى الآن على حفافى الاطمئنان ، وقد لمع فى مخيلتى غمر من الكلمات كان شأنها شأن هذا .

(البقية فى العدد القادم) **الأسدى محمد خير الله**

---

(١) ولا أصله ممول — كما يذهب الصديق الأستاذ حسام الدين الخطيب ، قال : ألا ترى أن حفلة الطرب المكينة تبدأ بتقاسيم العود من الرصد مثلا ، يتلوها عزف صامت من الجوقة كلها على النغم نفسه ، ثم تعزف الكمان تقاسيمها للتأكيد به ، ثم يولج فى موشح رافد للرصد ، ثم يمهد القانون بلياليه الرصدية ، وهنا تكون مخيلة المغنى مترعة بنغمة الرصد وتلميحاتها أو قل : ساطنت على حد تعبير الموسيقيين ، فتنطلق بالموال فى أفانين الرصد فى جو حر فسيح ، وعلى هذا فالموال قد مولته كل هذه الممهدات ، فهو ممول .

وجهة النظر الجديدة في الحياة

للكاتب الصيني الكبير واه يوه شينغ

[حديث ألقاه في جمعية الثقافة المركزية بتشنغ كنغ]

بقلم الأستاذ نور ناهين

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

ومع ذلك فإن في تاريخ الصين ما ينزع إلى الأمور الشخصية مثل الذي ذكرت، فمثلا في عهد أسرة « تنغ » قد استولت على أفرادها النواحي الحزبية، واستعلن النزاع بين « نيو » و« لي »، حيث عقدوا عهدا سريا على أن يخصوا الأمبراطور، وهذا أمر داخلي، وأما الأمر الخارجي فإنهم اتصلوا بالأجانب وشايعوهم، ثم اشترك أنصارهم «نان شاو» و« هون تسن» في النزاع واحدا بعد الآخر، حتى غرقت الدولة كلها في بحر المصائب والبلايا. وهذا مثل آخر، أحدث في عهد أسرة « سونغ » من النزاع الحزبي بين «وان غان شي» و« يان يو » حيث نفثوا سم خصامهم حتى انتشر وأهلك دولة « سونغ ». وأشد ما يحزن ما عم في آخر عهد أسرة « مين » من بلاء حزب « دان لين » الذي أثر على مدة حكم الملك أسوأ التأثير. أما ما حدث بعد إعلان الجمهورية الصينية من النزاع الحزبي والخصام، فخير لنا ألا نذكره مؤقتا، لنتركه إلى التاريخ

إن مجتمع الصين كله ككتاب تاريخي شامل لما يترتب على الاهتمام بالأمور الشخصية. فكم من الناس من قديم وحديث نجحوا نجاحاً باهراً في الاعتماد على التمة الشخصية! وكم من الأشخاص، قد تحاربوا وتنافسوا بسبب الأمور الشخصية أيضاً، ذلك لأن الصينيين لا يهمهم إلا ما يتعامل به بعضهم بعضا ويهملون ما ينبغي عليهم أن يتعاملوا به كأفراد للطبيعة.

فيجب علينا بعد هذا نحن الصينيين، في هذا العصر أن نقصد إلى هدف في الحياة، ولا بد أن نهدم ما يحيط بالناس من حدود، ونبتعد عن نطاق المتاع الشخصي، لنتغلب على الطبيعة مع بعض، ثم نجدد نظم المجتمع ونصلح شئون الدولة.

يجب علينا أن نجل المستر «لنكولن» زعيم أمريكا المشهور، ونحترم رأيه العظيم كل الإحترام إذ أنه يريد ألا يسترق الناس أحد من الناس، ولا يرضى أن يهدد بني البشر أمثالهم، ولم يتردد في إشعال الحرب لإعتاق الرقيق. وكان يبذل جهده لتحرير الرقيق من جهة، ويحث الناس على الهجرة من جهة أخرى، حيث دعاهم بأن يتقدموا نحو غرب أمريكا متحدين، ليفتحوا كنوز طبيعتها البكر، وهكذا مهد الطريق إلى رقي أمريكا بيديه.

إن أسلوب «لنكولن» العظيم، هو هدم الحدود بين البشر لقهر الطبيعة، أو بتعبير آخر أن يتعدى الناس الحدود الضيقة الشخصية في معاملة بعضهم لبعض، ثم حثهم على الكفاح والجهاد لاقتطاف الثمرات الطبيعية للحياة، وهو أسلوب أشبه ما يكون بأسلوب المخترعين والمكتشفين، بل إنهم من منبع واحد.

وبمناسبة ذكر الكفاح والحياة المثالية الطبيعية، أذكر ما أملاه علي ركوب البحر من أفكار، ذلك أنني كنت غارقاً في أعمال إدارة جريدتي، في ربيع سنة ١٥ للجمهورية الصينية، إذ كنت في منصب رئيس التحرير والمدير العام، وكان هدف الإدارة من نواحي العمل والنظم والمقالات كخيط مستقيم، إذ نبهت أبناء وطني للثورة على الضباط الشريرين الذين يضرون الوطن ويزعجون الشعوب. ثم تركت إدارة جريدتي مضطراً، وفررت راكباً من « تيني جي » إلى شنغ هاي، حين وصل « تشوبي يو » و « لي جنغ لين » إلى « تين جين » مع قواتهما. ولما خرجت الباخرة من ميناء « تان قو »، لم أر في الدنيا إلا الماء العميق والسماء المرتفعة والتقاءهما عند الأفق، وسارت الباخرة في البحر الواسع رويداً رويداً كنفرفة القرع، وحينئذ شعرت فجأة بسعة الدنيا وصغر البشر، وفكرت في الذين لا يزالون يتنافسون ويتنازعون ويتحاربون في « تين جين »، مثلهم كمثل عرمة الديدان، لو أن تلك الجملة من الناس ألقيت في البحر، لم يبد شيء إلا الزبد والرغوة فحسب. وعندئذ اعتقدت كل الاعتقاد أن مستقبل الإنسان لن يكون فسيحاً متسماً، إلا بعد أن يبتعد الناس عن نطاق المتاع الشخصي الضيق، ويبذلوا أقصى جهدهم في سلوك طريق الطبيعة العظيمة الأبدية

ما أشد ما يعلق مستقبل الإنسان بآثار الحرب الحاضرة! فإن من حسن الحظ أن قام الأمريكيون يساعدون انجلترا بقانون الاعارة والتأجير، ثم يساعدون روسيا والصين أيضاً حتى حولوا موقف دول الحلفاء من الهزيمة إلى النصر، وكان سبباً في هزيمة المحور، وأصبح العالم كله يحلم بمستقبل منير.

وربما رأى بعض الحاذقين أن الأمريكيين من أشد الناس حمقاً ، لأنهم يسلمون ما أنتجوا من السلاح والغذاء إلى حلفائهم بدون أى شرط ، وهم قد دفعوا الضرائب الثقيلة ، وسكبوا عرقاً ودماء . ولكن الأمريكيين أنفسهم ما زالوا يخترعون هكذا ، ويعطون هكذا ، بل إنهم سيستمرون فى الاختراع والاعطاء ، وبذلك أصبحت أمريكا زعيمة دول الحلفاء ، وصار الرئيس روزفلت أول السياسيين فى العالم ، وصار أهل أمريكا أ كثر الناس سعادة . وإن مثل أمريكا الآن مثل الشمس تبعث الحرارة والنور باستمرار ، فحصلت عظمتها وجلالها من بذل الحرارة والنور ، وهى نفسها لا تمنى بتنعمها قط .

وإذا لاحظنا مسألة الأمريكان الاقتصادية بعد الحرب الحاضرة ، وقد نفذت اليوم فعلا ما عرضته على آذان المستمعين الآن من نظرية الشمس والحياة ، ظهرت لأعيننا مشكلة النزاع الملنى بين فريقين : أولهما « Expans onist » الذين يقترحون أن يبقى الإنتاج الجليل كما كان بعد الحرب الحاضرة ، كى تتجدد مسألة البطالة ، وهم لا يلاحظون حينئذ دفع الضرائب الثقيلة وتحمل الديون . وثانيهما : « Consrvitist » الذين يقترحون اختصار ميزانية الوطن بعد الحرب الحاضرة والنقص من مدى الإنتاج تجنباً للتضخم المالى .

وإنى لوافق على رأى « xpans on st » من التوسع فى الإنتاج ، فأرجو من أمريكا أن لا تنفذ قرار « Conservitist » الذى يشير بإنقاص الانتاج بعد الحرب الحاضرة ، بل يجب عليها أن تستمر فى الاختراع والإنتاج ، لتتمتع الجماهير بالنتائج ويرتفع المستوى الميشى ، ثم تبيع ما يبقى من الإنتاج بعد الاستعمال ، ولو بقى شىء من الإنتاج بعد البيع ، فما عليها إلا أن تقدمه للناس هدية . إذ أن ثمة بعد الحرب كثيرا من البلدان تنتظر نهضة ، وكثير من الأمم تحتاج إلى المساعدة والإنقاذ . ولما كانت لأمريكا هذه القوة على الاختراع وتلك القدرة على الإنتاج ، فكيف يجوز أن لا ترفع قواتها إلى أقصى الحد ، كى توفر النعمة لجمهورها خاصة وللعالم كله عامة ؟

إن السياسيين الأوربيين إذا تحدثوا عن سياستهم الداخلية ، طالبوا دائماً برفع المستوى المعيشى ، أما السياسيون الصينيون فقد تعودوا أن يبثوا فى الناس حب الاقتصاد والزهد ، وذلك يوضح مذهب الفريقين المختلفين وفلسفتهما ، ويمثل نوعين من السياسة متميزين .

أما كيف يرفع مستوى المعيشة فذلك بالبحث فى خامات الطبيعة وقوانينها والأخذ عنها بالاختراع والعمل على زيادة الانتاج . وأما كيف يكون الزهد والاقتصاد فذلك بالقصد فى الطعام والكساء ، وجمع النقود مليما بعد مليم ، وتكديس المئونة قيراطا بعد قيراط ، حتى أصبح الشحاذون هم أصحاب الثراء ، وفوق ذلك فان أكبر ضرر ينتج عدم الانتاج والابتكار ، والزهد والشح هو فتح باب الخداع والرشوة ، ولهذا كان ضعف الصين وفقرها .

لقد كان صاحب كتاب « الدول الثلاثة » أعظم الناس عقلا وأكثرهم تجريبا ؛ إذ قال فى أول كتابه القيم : « لا بد أن تتطور حالة الدنيا بحيث يتحد الناس بعد مدة الفراق من جهة ، ويفترقون بعد مدة الاتحاد من جهة أخرى » .

ولو أننا رجعنا إلى الخلف خطوة ، نبحث فى تاريخ الصين عن أسباب السلام والصلح من جهة ، وعن أسباب التمرد والعصيان من جهة أخرى ، لوجدنا أن السبب الوحيد هو وقوف سياستنا فى حدود نطاق المتاع الشخصى الضيق ، وحدود الاقتصاد فى إنتاج الزراعة البسيطة ، وعدم استغلال الطبيعة لتحسين حال المجتمع وخصوصاً العجز عن رفع مستوى المعيشة .

لقد كانت مصر من بناة الحضارة بين أبناء آدم ، بل كانت الأولى فى العالم من قديم الحضارة وبعد التمدن ؛ إلا أن أهلها ما زالوا يعيشون على ماء النيل فقط ، فاذا لم يرتفع فيضان النيل إلى درجة موفورة ، نقص حصاد الزراع ، ومات الناس جوعا . وإذا لم تكف المؤونة بأن كان إنتاج الزراعة ومحصولها محدودا مع زيادة السكان ، حدثت المصائب دائما ، فلذلك ظلت مصر ضعيفة .

وإلى هنا كشفت المشكلة أمام أعيننا علانية ، فلا بد أن ننزع ما بين البشر من حدود ، ونبعد عن نطاق المتاع الشخصى ، ثم نتجه إلى السماء بقصدنا المبين ، ونستغل الطبيعة بقوتنا المتحدة وعند ذلك تحسن حالة المجتمع وتصلح شئون الوطن ، ونرى أنفسنا متقدمين نحو الأمام مشغولين بالاختراع . تلك هى وجهة نظرى الجديدة فى الحياة ، وهى نفسها نظرية الشمس والحياة .

نور ناهين

داود باشـــــا
ونهضة العراق الأدبية
في القرن التاسع عشر

للمرحوم الأستاذ رزوق عيسى

— ٢ —

ومن آثاره الجامع المسمى باسمه في الكرخ قرب مقام الخضر، والشارع الذي وسمه والباب الذي فتحه في الرصافة بالقرب من رأس الجسر القديم بجانب الثكنة « القشلة » وقد نقشت فوق رتاجه هذه الأبيات :

آثار داود آثار بها لبست … بغدادُ حسناً يروق العين واضحه
تشكو الرصافة قدماً ضيق مسلكها … ويكره الضيف غاديه ورائحه
فأُمنحت بطريق لازحام به … وباب جسر حُبي بالنصر فاتحه
يخاطب الملك الأعلى كأن به … شوقاً إلى المشتري يبغي يصافحه
أعيا أبا جعفر المنصور حين بني … حظ أبو يوسف المنصور رابحه
داود من أيدت بالنصر دولته … وعن لسان الثنا سارت مدائحه
لا زلت تسمع خيراً من مؤرخه … بابٌ وداود ربُّ الفتح فاتحه
١٢٤١ هـ

ومن آثاره أيضاً الجامع القائم بسوق الهرج الذي شيد معالمه بعد درسها وقد كتب فوق بابه ما يلي :

ذا جامع كان قدماً لا شبيه له … في حسن بنيانه والدهر غيره
وكم وزير أتى الزوراء ثم مضى … ولا لغير خيام الجند صيره
حتى أتى ذا العلى داود آصفنا … من حك بالشمة الأفلاك مفخره
فشاد أطنابه من بعد ما انهدمت … للعابدين وشـــاه وصوره
وحين تم غدا الداعي يؤرخه … ذا جامع بالندى داود عمره
١٢٤٢ هـ

اهتم داود باشا اهتماما عظيما بتوسيع نطاق التجارة والزراعة وترقيتهما فكرى الأنهر وشق الترع ومنها نهر عيسى المعروف اليوم باسم أبي غريب الواقع في الجانب الغربي من بغداد ، وقد نظم الشيخ صالح التميمي قصيدة عامرة الأبيات مطلعها :

لونهر عيسى يحاكي فيض نحيبه … لصير الماء في أعلى روابيه
نهر عليه ظباء الوحش عاكفة … دهراً فعادت ظباء الأنس تأويه

ولما تم كرى نهر عيسى شرع في كرى نهر النيل الواقع في لواء الحلة ، فأمر بحشد خمسة آلاف عامل ، وقد أنجز حفره عام ١٢٤٢ هـ ، فأكثر الشعراء من مدح المترجم بقصائدهم ومنهم الشيخ صالح التميمي الشاعر المطبوع القائل في مطلع قصيدته هذه :

دع نهر عيسى وحدثني عن النيل … واجر الحديث بإجمال وتفصيل
نيل ولا مصر لكن في جوانبه … نضارة لم تكن في مصر والنيل

ومن مآثره اهتمامه بفتح المدارس وإنشاء المعاهد العلمية والأدبية وقد بلغت في زمن ولايته نحو ثلاثين مدرسة بين عالية وابتدائية ومنها المدرسة المعروفة باسمه وقد نالت شهرة واسعة .

شعره

كان صاحب الترجمة يحسن العربية ويجيد قواعدها وشواردها وله وقوف على آدابها ، وقد نظم قصائد عديدة ، ودبجت براعته رسائل كثيرة بعث بها إلى أصحابه وإخوانه ؛ غير أن آثاره الأدبية فقد معظمها ولم يثبت منها سوى الشيء النزر في بطون الدواوين وعلى صفحات المهارق ، وقد ورد في سجع الحمامة وهو ديوان بطرس كرامة ص ٣٢٤ ما نصه : وقال مخمساً والأصل بيتان لبعض شعراء العراق شطرهما داود باشا والي بغداد سابقا :

زند الأسى بين الجوانح قدورى … لما تأخر ذو الأمام إلى ورا
أين الوفا والغدر قدعم الورى … ولقد يشق على النواظر أن ترى
ذاهمة في ذلة وصـغار
أضحى النبيل الفرد منفصم العرى … مما يؤمل جاهداً فوق العرا(1)
يا لهف نفس مرة مما عرى … ما كنت أوثر أن أشاهد أو أرى
كبراء قوم في أكف صغار
فالدهر خصم إن بدا اطراقه … وإذا الزمان تراجعت أخلاقه
سلب الرئاسة من يد الأحرار

(1) ساحة الدار .

لعب الزمان بنا فليس بغادر   شهماً يميز عاذراً من غادر

يا طالباً شهماً بليل غادر(1)   ما ذا تؤمل من زمان جائر

جعل الخيار بقبضة الأشرار

ومنها قصيدته المعروفة بالدرع الداودية، فقد وجدت في خزانة جرجس بك صفا، أوقفه عليها الأمير سعد حفيد الأمير بشير الشهابي الكبير، وهي من مخلفات شعر جده بطرس كرامه، وها نحن أولاء ندرجها كلها لأننا لم نقف على غيرها من نظم ذلك الوزير الشاعر:

الدرع الداودية

أما آن للأحباب أن ينصفوا معنا

فزاغوا وما زغنا وحالوا وما حلنا

نعم هجروا واستبدلوا الوصل بالجفا

وخانوا عهوداً ماضيات وما خنا

رعينا حقوقاً لا علينا نعم لنا   عليهم حقوق سالفات ولا منا

وفينا ولم نغدر فكان جزاؤنا

جزاء أم عمرو فافهم اللفظ والمعنى

وإنا لقوم نحفظ الود غيرة

ونرعى ذماماً إن حضرنا وإن غبنا

وإن جيشوا جيشاً من الصد والجفا

بنينا من الصبر الجميل لهم حصنا

هم زعموا أن كل برق يخيفنا   تخابوا بما قالوا وقلنا وما خبنا

إذا ضيموا حتى فهم يعرفوننى

إذا هبت النكباء كنت لهم ركنا

وإني أبيٌّ أن ألم بريبة   وأستعطف الخب اللئيم أو الأدنى

وما كان عيبي عندهم غير أنني   إذا بيعت الأرواح لا أدعي الغبنا

وإن قام سوق الحرب إني أشدهم   لأعدائهم بأساً وأكثرهم طعنا

وأثبتهم جاشاً وأطولهم يداً   وأوفاهم عهداً وأكبرهم سنا

وأحكمهم عقداً وأمنعهم حمى   وأصدقهم قولاً وأوسعهم مغنى

أجامل أقواماً ولا لا مهابة   فيزعم قوم أننا منهم خفنا

وأسكت إبقاء لود علمته   وعندي مقال يحطم الظهر والبطنا

ولو وقفوا يوم الرهان مواقفي   لأهديتهم روحي ومالي وما يقنى

فيا أسفي ضيعت عصر شبيبتي

بكل خفيف القدر لا يعرف الوزنا

فإن وصلوا حبلي وصلت حبالهم   وإن قرعوا سني جدعت لهم أذنا

إذاهم في إسعادنا لمة   ألمت بنا قد أسعفونا فلا عشنا

وظنوا بأن الآل يشفي من الصدى   فخاضوا به للورد جهلاً وما خضنا

وقد بدلوا الغالي الذي تعرفونه   بصفقة غبن لا نقيس بها غبنا

ولو علموا ما يعقب الغبن في غد   لقيل لهم تبت يدا كم وما أغنى

صحائف عندي غيرة قد طويتها

ولو نشرت يوماً لقصوا لها ذقنا

أجول بطرفي في العراق فلا أرى

من الناس إلا مظهر البغض والشحنا

تخيرهم للأجنبي وقبحهم   على بعضهم بعض يعدونه حسنا

وشبانهم شابوا المودة بالجفا   وشبنا وما للصفو في كدر شبنا

حضرنا متى غابوا بموقف حربهم

وإن حضروا في موقف للخنا غبنا

سمرنا مع السمر العوالي لياليا

وهم سمروا في ذكر سعدى وفي لبنى

جفوا فوصلنا حبلهم بعد قطعه   فدع منهم يبدو الجفاء ولا منا

ألا نخوة منهم فيصغون للذي   أيادي سبا قد لاعبت ذلك المغنى

ألا حازم للرشد شد حزامه   لداهية ينسى بها الطائر الوكنا

ألا مرشد منهم عن الغي قومه   فيوقفهم منه على السنن الأسنى

ألا رافع عن قومه بغي ظالم

إذا قعدوا في الحرب من ينطح القرنا

وكان إذا أبدى التشاجر نابه   يفرون مثل الجحر عنه وما كنا

ومن كل ناموس وبأس تخلصوا   كما نحن من غل وغش تخلصنا

لقد حملوا ما يثقل الظهر من خنى   كأنهم من ماله حملوا سفنا

متى تعتذر أيامنا من ذنوبها   وهيهات من غدر لمومسة لخنا

فكم طحنت قوماً بجؤجؤ صدرها

وما أصلحت يوماً دقيقاً ولا طحنا

وعصبة لؤم قد تناجوا لحربنا   فياويحهم ما ذا يلاقونه منا

تراموا وحاشا المجد أن يتقدموا   علينا وهاموا بالأماني وما همنا

---

(1) مظلم.

وطاشوا ببرق خلب لا أبالهم … وسلوا علينا المرهفات وما خفنا
فقل لى بماذا يفخرون على الورى … إذا عدت الآباء أو ذكروا الأبنا
فهبهم على المجد الأثيل تسنموا … ألا يعلمون المجد بالقول لا يبنى
ألا غيرة تدعو الصريخ إذا دعا … ليوم عبوس شره يوقظ الوسنى
طوينا عن الزوراء لادر درها … بساطا متى ينشر نعد به طعنا
وإنى وإن كنت ابنها ورضيعها … فقد أنكرتنى لاسقاها الحيا مزنا
إلى الله أشكو من زمان تخاذلت … خيار الورى فيه وساؤوا بنا ظنا
وباع بفلس كل خل خليله … وصار الكريم الحر يسترفد القنا
ألا مبلغ عنى سراة بنى الوغى … وأقيال عرب كيف صبرهم عنا
أهم بأمر الحزم فى حومة الوغى … ومن ناهز السبعين أنى له أنى

إذا كفى اليسرى أشارت لناقص
قطعت لهـــا زنداً وألحقتها اليمنى

وأنا إذا صاح الصريخ لحادث … أجبنا ولبينا لمن فيه أنبأنا
على الكرخ فى الزوراء منى تحية … وألف سلام ما بها ساجع غنى

صحبتهم طفلا على السخط والرضى
وشبت فلا ســـــوق أفاد ولا أغنى

وبعد مضى أربع عشرة سنة على ولايته فى بغداد سولت له نفسه أن يستقل بالقطر العراقى ويعصى أميره كما فعل محمد على باشا والى مصر، غير أنه لم يفز بوطره إذ فشا على أثر خروجه على الدولة العثمانية طاعون شديد الوطأة فى بغداد وما جاورها من البلاد بحيث ثبط عزمه وشتت شمل جيوشه. فلما انتهى إلى الآستانة خبر عصيانه أرسل السلطان محمود خان نحو عشرين ألف مقاتل يقودهم على رضا باشا والى حلب لكبح جماح الوالى المتمرد، فباغت قائدهم مدينة بغداد وشدد عليها الحصار بينما كان أميرها المستقل منهمكا فى تحصين أسوارها وتقوية حاميتها، وبعد مناوشات عديدة وهجوم ودفاع رأى أن لا طاقة له على القراع والكفاح لموت معظم جنوده بالوباء، فأذعن لخصمه وسلم نفسه أسيراً، فأرسل على الفور إلى الآستانة مخفوراً، وقد برح عاصمة العباسيين قاصداً القسطنطينية عام ١٢٤٧ هـ — ١٨٣١ م حيث عفى عنه، ولقى مزيد الحفاوة والإكرام لكثرة خدماته السالفة للدولة، وبقى مشمولا بالرعاية والالتفات، مـــدة إقامته فى عاصمة المملكة.

لقد جمت المترجم لحمة الأدب بالشاعر المفلق الملم بطرس كرامة الذى أتحفه بقصيدته الخالية التى بعث بها إلى طائفة من أدباء وشعراء بغداد وطلب منهم أن ينسجوا على منوالها ويباروا صاحبها وهاك مطلعها وبعض أبياتها:

أمن خـــدها الوردى أفتنك الخال
فسح من الأجفان مدمعك الخـال(١)
وأومض برق من محيا جمالها
لعينيك أم من ثغرها أومض الخال(٢)
رعى الله ذياك القوام وإن يكن
تلاعب فى أعطافه التيه والخال(٣)
ولله هاتيك الجفون فإنهـــا
على الفتك يهواها أخو العشق والخال(٤)
مهـــاة أفتـــديها ووالـــدى
وإن لام عمى الطيب الأصل والخال(٥)

اقترح صاحب الترجمة على الشيخ عبد الباقى العمرى أن ينسج على منوال خالية بطرس كرامه فعارضها بقصيدة غراء مطلعها:

إلى الروم أصبو كلما أومض الخـال
فأسكب دمعاً دون تسكابه الخال
وعن مدح داود وطيب ثنائه
فلا القد يثنينى ولا الخد والخال

وقد ختمها بهذين البيتين:

وإنى وإن كنت الرديف نظامه
لمسبوقة حسن الردى لها الخال(٦)
فذى معجزاتى ما أرى ابن كرامة
يعارضها حتى يصـــاحبه الخال(٧)

(يتبع) رزوق عيسى

(١) الخال فى الشطر الأول شامة الخد وفى الثانى السحابة الماطرة.
(٢) الخال: البرق.
(٣) الخال: العجب والكبرياء.
(٤) الخال ضد العاشق: أى الخالى من الحب.
(٥) الخال: أخو الأم.
(٦) الخال: النقطة.
(٧) الخال: الكفن.

من أغانى الروح:

عبيـــد الرياح

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

[فى غروب يوم قائظ ، ماتت رياحه وسكن فيه كل شىء ، إلا غناء شتى يتهاتر أنينه من هؤلاء المذبين الأبطال . ساروا مصفدين بحبال السفن ، يصارعون تيار النيل فى عراك جبار مع الطبيعة ، علهم يشقون فى صدرها طريقهم إلى الجنوب !]

رأيتهمُ فى غروب كئيب   يعز على شمسهم أن تغيب
جدتهم بأشلاء ضوء ذبيح   يمصفر أشباحهم باللهيب
جبــابرة عوذوا للهواء   وبثوا رقاهم لريح المغيب
يلوحون صفاً وئيد الحراك   كأنهمُ صُلبوا فى الكثيب
يسيرون سير الهوان المريب   ويمشون مشى الزمان الكئيب
فتحسبهم أوغلوا فى الخيال   وعينُك تأخذهم من قريب !
على صدرهم من غضون الكفاح   أفاعى حبال تلف الجُنوب
تجــاذبهم خطوهم للوراء   فهم من عناد بقايا حروب
ســواعدهم موثقات الزنود   ولـكنها عـــدة للهبوب
تشق الفضــــاء بأصفادها   فتنشق أجـوازه أو تذوب
وأجسادهم حانيات لهـــا   ركوع المحمَّل ثقل الذنوب
كأنهمُ فى سفوح الزمان   شياطين تحدو المساء الرهيب
حواميمهم خلف نعش الرياح   (هواهو) (هواهو) غناء رتيب
سقاهم « سليمان » من سره   فكادوا يعشُّون سمع الغيوب
أقاموا جنازاً يئن الفضاء   بأصدائه ، وينوح الغروب
يكاد يعزى ، ويمشى النخيل   وراءهمُ ، وتلوذ السهـوب
شدوا واستجاروا وخاب النداء   فغاصت خطاهم وشقوا الجيوب
ومروا حفــاة عراة لهم   شهيق الثكالى وزفر الغريب
على الأرض خُرْس وإن همهموا   فهذى صلاة تذيب القلوب
يجرون أيامهم خلفهم   وذكرى شقاواتهم والكروب
عبيدَ الرياح ، كلانا رقيق ...   فغنوا وسلوا عبيد الخطوب ! !

محمود حسن اسماعيل

الصـــفقة الرابحة ...

لطاغور

« تعال يا من يستأجرنى » .

رفعت صوتى بهذا النداء وأنا أذرع شارعا معبداً فى الصباح .

أقبـل الأمير فى عربته الفاخرة وسيفه فى يده ، ثم أمسك يدى وقال « لأستأجرنك بقوتى وسلطانى ، ثم مضى ... »

ولكن قوته لا تساوى شيئا .

وفي مر الظهيرة والشمس حانقة على الوجود ، كانت المنازل مغلقة الأبواب ، غير أنى تابعت سيرى فى الدروب الملتوية ، وأقبل رجل كبير السن فى يده حقيبة ملأى بالذهب ... فكر ملياً ثم قال :

« لأستأجرنك بذهبى ... »

ثم وزن ذهبه قطعة بعد قطعة ، ولكننى تركته يعد ذهبه وانفلت هاربا .

أقبل المساء وأسوار الحدائق تكللها الأزاهير ، وبدت فتاة جميلة وقالت :

« لأستأجرنك بابتسامة . . »

شحبت ابتسامتها ، وذابت فى دموع غزيرة ، ثم عادت أدراجها وحيدة وغابت فى الظلام .

تلألأت الشمس على الرمال ، وهدرت أمواج البحر فى عنـاء ، وجلس طفل يلعب بالقواقع على رمال الشاطىء . رفع رأسه وكأنه يعرفنى وقال :

« أما أنا فإنى أستأجرك بلا شىء ... »

ومن ذلك الوقت تعلمت معنى الحرية من صفقة طفل يلهو بقواقعه على الشاطىء .

(بغداد) إبراهيم أبو الفتوح

الأدب والفن في أسبوع

مكتبة الأب أنستاس الكرملي :

كلفت اللجنة الثقافية بالجامعة العربية مندوب العراق الاتصال بالحكومة العراقية على أن تحرص على اقتناء مكتبة فقيد اللغة والأدب الأب أنستاس الكرملي قبل أن تتبعثر وتتخطف الأيدي كنوزها النادرة .

وقد كان الأب الكرملي — رحمه الله — من الباحثين الذين يهتمون باقتناء الكتب النادرة ، وقد صرف كثيراً من عنايته إلى هذه الناحية . ومما يذكر أنه في صدر حياته جمع مكتبة ضخمة في خزانة دير الآباء الكرمليين ، وقد كانت هذه المكتبة تضم حتى عام ١٩١٤ أكثر من ١١ ألف كتاب عربي مطبوع وأكثر من ٨ آلاف كتاب أفرنجي مطبوع و ٧٨٣ كتاباً من نوادر المخطوطات كان ضمنها ديوان امرئ القيس وديوان السموأل وديوان المزرد ونسخة كاملة في ٣٢ جزءاً من كتاب مرآة الزمن لابن سبط الجوزي ، ونسخة كاملة من الخصائص لابن جني ، ونسخة من كتاب العين للخيل بن أحمد ، ونسخة تامة من ديوان الأدب للفارابي . ولكن هذه المكتبة النفيسة ضاعت إبان الحرب العالمية الأولى ، فكان ضياعها فجيعة قاسية على نفس الأب الكرملي ، وظلت الحسرة على ضياعها تلازمه حتى مماته .

على أنه — رحمه الله — أخذ في تجديد تلك المكتبة ، وجهد في جمع النوادر لها ، وقد استطاع أن يضم فيها قرابة ٢٠ ألف كتاب مطبوع وألفي كتاب مخطوط . ومما يذكر أن الكرملي ألف أكثر من أربعين كتاباً في اللغة والأدب والتاريخ ، وقد طبع بعض هذه الكتب ، ولكن أكثرها لا يزال مخطوطاً ، وفيها ما لم يكمل تأليفه . وكان — رحمه الله - يعتز بهذه المؤلفات ويبالغ في المحافظة عليها ، ولما قامت الحرب جمعها في خزائن حديدية ودفنها تحت الأرض حتى لا تفتك بها الأحداث ، وقد صرف الكرملي حقبة طويلة من عمره في تأليف قاموس عربي كبير قسمه إلى ثلاثين جزءاً ، أنجز منها ٢٢ جزءاً ؛ وكان في آخر حياته شديد الحرص على إتمام هذا الأثر ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يبلغ غايته .

ومما هو معروف أن الفقيد كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فإذا كانت الحكومة العراقية ستقوم من جانبها باقتناء مكتبته ، فلعل هذين المجمعين يقومان بالواجب عليهما نحو الفقيد ونحو أبناء العربية فيحرصان على نشر آثاره الخاصة وطبع مؤلفاته ، حتى لا يضيع جهد ذلك الباحث العظيم على اللغة ، وتكون نهايته أن يدفن في خزانة ...

هل نهضنا ؟

زميلتنا مجلة « الأديب » البيروتية دعامة من دعامات النهضة الأدبية العربية ، وصفحة مشرقة تنشر مفاخر الآباء ومآثر الأبناء وتسجل حلقات التطور في الفكر العربي ، ثم هي تجمع إلى ذلك روائع التفكير الغربي ، فهي بحق تضطلع بمهمة شريفة كريمة في خدمة القومية العربية والنهضة الفكرية .

ولكن هذه الزميلة العزيزة كتبت في عددها الأخير تقول إنها تواجه أزمة مالية تهددها ، وإنها لذلك وضعت مستقبلها بين يدي أنصارها وأصفيائها ، وطالبتهم أن يعينوها باشتراك مادي مضاعف حتى تستطيع السير في خطتها ؛ وتقول « الأديب » : إنها تقصد بالأنصار أنصار الرسالة الواعية والفهم القوي ، وإنها تأمل أن يجد نداؤها صداه البعيد في نفوس الذين في وسعهم تلبيته

وهذا داء معضل نعرفه في الشرق العربي ، فلا تجد صحيفة أدبية تخدم الأدب الصحيح ، وترفع لواء الرأي الصريح ، وتخلص للقومية والعقيدة الرشيدة تصيب من التقدير والإقبال ما يعينها في مهمتها ، ويساعدها على ما تضطلع به من أعباء ، على حين تجد عشرات الصحف والمجلات التي تعيش على تملق الغرائز والتجارة بالكلام التافه تصيب من التقدير والإقبال ما يغدق عليها وفير المال .

يقولون إننا في الشرق العربي قد نهضنا في الأدب ، وأنا أقول أجل ! إننا نهضنا ولكن بغرائزنا لا بعواطفنا ، ونهضة الغرائز

ضراوة وانحلال ، ويوم أن تنهض عواطفنا ، وتهذب مشاعرنا ، نستطيع أن نقدر الفكر القويم، والأدب الكريم، والإنتاج المهذب إنها في الواقع ليست محنة « الأديب » إذ لا تجد ، ولكنها تهمة لأبناء العروبة إذ لا يقدرون .

كتب الله السلامة « للأديب » ، وبصر بحالها كل ندب أريب ...

جورج ديهامل :

يزور مصر في هذه الأيام مفكر ممتاز وأديب فرنسي كبير له صيته ومكانته ، هو الأستاذ جورج ديهامل عضو الأكاديمية الفرنسية . وليس مسيو ديهامل بالمجهول لأبناء العربية عامة ولأبناء مصر خاصة ، فقد سبق له أن زار مصر كما زار بلاد الشرق ، وقد ترجم الدكتور طه حسين بك نخبة من آثاره إلى العربية ، كما ترجم له الدكتور محمد مندور كتاب « دفاع عن الأدب » فأدى بذلك خدمة جليلة للأدب العربي في مرحلة التطور التي يواجهها الآن .

ومسيو ديهامل في نحو الستين من عمره ، وقد درس في أول حياته الطب ، واشتغل بهذه المهنة ، وكانت نفسه تنزع إلى الأدب فاستجاب لهذه النزعة وأخذ يجمع بين الطب والأدب ، ولما قامت الحرب العالمية الأولى خدم فيها ، واشتغل طبيباً في المستشفيات الحربية ، وقد كان هذا من عوامل التطور في حياته وفي تفكيره ، لأنه لمس آلام الإنسانية بيديه ، وتمثلت مشاكلها الباطنية لعينيه .

وقد خرج من ذلك بعقيدة ثابتة وهي أن القلب موطن السعادة ومبعثها ، وأن العلم والعقل والحضارة لا تستطيع أن تسعد إنساناً إذا لم تشف قلبه وتغمره بالرضا والبهجة والاطمئنان وهذه العقيدة هي محور التفكير عند هذا الأديب الكبير في كل ما ينتج .

وإيماناً بهذه العقيدة يحب ديهامل وطنه فرنسا ويفنى في هذا الوطن كما يقول ، لأنه نشأ فيه وترعرع ، ولأن فرنسا قد أسدت أكثر من أي أمة خدمات جليلة إلى الفن والأدب وبذلت كثيراً لإسعاد الروح الإنسانية ، وقد كان مسيو ديهامل في بيروت قبل أن يصل إلى مصر وقد ألقى هناك عدة محاضرات ، وسيلقى في مصر عدة محاضرات أخرى . وفي مساء الأربعاء الماضي ألقى المحاضرة الأولى بدار جريدة « البروجريه اجبسيان » ، وكان موضوع المحاضرة « فرنسا حياتي » فقال إنه ابن فرنسا ، وإنه نما وترعرع تحت سمائها ؛ وعاصر فيها عدة مراحل سياسية وتاريخية ، ولهذا فهو خبير بها مخلص لها ، ثم تساءل : بأي مقياس نحكم أن دولة أعظم من دولة ، أبكثرة عدد سكانها ، أم بما تملك من وسائل الإنتاج الاقتصادي والرواج التجاري ، أم بما تحشد من عدد الجنود والأساطيل ، ثم أجاب على هذا التساؤل قائلا : كلا ، بل بما تهب الدولة للعالم الإنساني من رجال عظام يخدمون الإنسانية في شتى نواحي الأدب والفن والعلم والاختراع ، ثم أشاد بما وهبته فرنسا للعالم من رجال عظام ونساء عظيمات خدموا الإنسانية في كل فن ومذهب .

ويظهر أن مسيو ديهامل لا يقوم الآن بزيارة الشرق لمجرد الرحلة ، بل ليؤدي واجبه نحو الوطن الذي يقول « إنه حياتي » وسيذيع سلسلة محاضرات في تمجيد الثقافة الفرنسية في وقت تتطاحن فيه الدعايات في الشرق للثقافة الأمريكية والثقافة الإنجليزية .

تراث المعري :

لما تجمع أدباء العربية في العراق منذ ثلاثة أعوام للاحتفال بذكرى أبي العلاء المعري رأى الدكتور طه حسين بك — وكان يومذاك مستشاراً فنياً لوزارة المعارف — أن خير ما يجب لأحياء ذكرى ذلك الفكر العظيم هو إحياء تراثه وطبع مؤلفاته . وقد اسرع بتنفيذ هذه الفكرة فألف لجنة من وزارة المعارف قوامها الأساتذة ابراهيم الأبياري وعبد السلام هارون وحامد جادو وعبد الرحيم محمود ومصطفى السقا ، وضم إلى اللجنة السيدة ابنة الشاطىء ولكنها لم تقدر على احتمال هذه المهمة الشاقة فانصرفت أو صرفت عنها .

واعتكفت هذه اللجنة في حجرة بدار الكتب ، وجمعت حولها كل تراث المعري وكل ما تحتاج إليه من الأضابير ومجفو الطوامير ، واستطاعت أن تحصل على المصادر التي ليست بالدار وما

تبعثر من آثار المعرى فى سائر الأقطار ، وقد استطاعت بعد قليل أن تخرج كتاب « تعريف القدماء بأبى العلاء » جمعت فيه كل ما قاله السابقون فى المعرى ، وهو كتاب يغنى الباحث عن الرجوع إلى عشرات الكتب كما يجد فيه ما لا يمكن أن يصل إليه لندرة المصادر

ثم أخذت فى إخراج كتاب « سقط الزند » مكملا بالشروح الثلاثة للتبريزى والبطليوسى والخوارزمى وقسمت الكتاب إلى أربعة اجزاء على أن يضم إليه خامس يشمل فهارس مفصلة ، وقد أنجزت منه إلى الآن ثلاثة اجزاء

وإنه لعمل جليل نافع ، يزينه اخلاص أعضاء اللجنة وما يتحلون به من صبر العلماء وتفرغهم لخدمة العلم والأدب منقطعين عن ضجيج الحياة الفارغ ، على حين أن الوزارة لا تكافئهم بما يكفى من الأجر ، ولا تجازيهم حتى بكلمة شكر ...

ولكن الأمر الذى يؤسف له أن اللجنة تخرج ما تنجزه من الكتب ثم تسلمه لوزير المعارف ليتصرف فيه بحكمته . ووزارة المعارف توزع الكتب هدية ، ولكنها تكون هدية إلى من يستحق ومن لا يستحق ، بل إن الوزارة تحبس كثيراً من النسخ لديها ولا تسمح لأحد بالحصول عليها ، أليس معنى هذا أن الوزارة تبعث تراث المعرى لتقبره من جديد !

فكرة ماتت :

كان تفكير القائمين على دار الكتب المصرية قد اتجه إلى بعث مصادر الأدب المصرى التى لا تزال إلى الآن مخطوطة مطمورة بالدار ، على أن تنشر نشراً علميا يستوفى الأسباب والوسائل الكافية ، ويقوم بتصحيح كل كتاب أستاذ معروف بقدرته وخبرته .

والفكرة وجيهة رشيدة ، بل إن النهوض بها واجب يقتضى الإسراع فى إنجازه ، فإن من العار أن يبقى أدبنا الذى يمثل شخصيتنا والذى هو منار فخارنا مطموراً منسياً إلى اليوم ، وإن من الهوان أن يبقى الأدب المصرى فى أزهى عصوره مجهولا حتى الآن .

ولكن يؤسفنا أن نقول إن هذه الفكرة الطيبة قد ماتت وطوى خبرها كما تطوى كل فكرة طيبة فى مصر ، وليس لهذا من سبب إلا لأن الذين فكروا فيها واتجهوا إليها قد بعدوا فى مجال العمل عن الإشراف على دار الكتب ، فلما جاء الخلف عز على نفوسهم أن ينفذوا فكرة صالحة للسلف .

فهل للقائمين بأمر الدار أن يمضوا فى هذه الفكرة ، وأن يعجلوا بانجازها وتنفيذها تقديراً للقومية وللعربية وإحياء لتراث عظيم مبعثر ، قبل أن يندثر ويقبر ؟ !

مجمعان علميان :

أخذت الحكومة العراقية بالأسباب لإنشاء مجمع علمى عربى على نظام المجمع العلمى العربى بدمشق ، وستجعل من مهمته التأليف والترجمة والنشر ، على أن تلغى اللجنة التى تضطلع بهذه المهمة .

وكان دولة رياض الصلح بك رئيس الوزارة اللبنانية يفكر فى إنشاء مجمع على هذا الغرار فى بيروت ، فلما عاد إلى الوزارة فى هذه الأيام كان أول ما انصرف إليه اتجاهه ، هو تنفيذ تلك الفكرة ، ويقولون إنه بسبيل تحقيقها وإخراجها إلى الواقع .

وإنشاء المجامع من هذا الطراز يخدم العلم واللغة والأدب ، وينظم الإنتاج الفكرى ويدعمه ، ثم هو يقوى الروابط بين الأقطار العربية ، لأن صلات الهيئات تكون أقوى وأشمل من صلات الأفراد .

وإذا ما تم إنشاء هذين المجمعين إلى جانب مجمع دمشق ومجمع اللغة فى مصر يكون فى بلاد الجامعة العربية أربعة مجامع ، أى أربع دعامات لخدمة العلم والأدب واللغة ، والهدف الذى نرجو أن تتوجه إليه جهود هذه المجامع هو أن تعمل متحدة متضافرة على جمع التراث العربى المبعثر فى الآفاق ، الموزع فى الأقطار ، فمنه جانب فى مكاتب الأستانة ، وجانب فى الاسكوريال ، وقسم كبير فى مكاتب أوروبا ومتاحفها ، ولقد انقضت السنون وما زلنا نعيش على انتظار ما تجود به علينا أيدى المستشرقين من هذا التراث .

جامعة أدباء العروبة :

افتتحت جامعة أدباء العروبة فرعاً لها بمدينة الفيوم ، وأقامت لذلك حفلا رائعاً ، فى مساء الخميس الماضى خطب فيه معالى

دسوقى أباظة باشا وزير المواصلات فتحدث عن أغراض الجامعة ومراميها ، وشرح ما تهدف إليه من غاية فى رعاية الأدب وتقوية الروابط ، ثم تعاقب الشعراء والخطباء فى إلقاء قصائدهم وكلماتهم فأنشد وخطب الأساتذة الدكتور إبراهيم ناجى ، وطاهر أبو فاشا وأحمد عبد المجيد الغزالى ، وخالد الجرنوسى ، والعوضى الوكيل ، وعبد المنعم إبراهيم ، وطه عبد البـاقى سرور ، وعبد الوارث الصوفى ، وهم من الفريق القاهرى ، وعبد المظيم بدوى ، ونبيه أبو زهرة ، ومحمد النشرتى ، وغيرهم من الفريق الفيومى . وكان موضوع القصائد والخطب الحديث عن الفيـوم ، من الوجهة التاريخية والأدبية ، وإنه لموضوع له قيمته ، ويا حبذا لو أن الشعراء والخطباء عنوا بتجريده وتخليصه من شوائب المناسبة وسجلوه لتعميم الفائدة .

فى موكب الجلاء والحرية :

أقام لبنان الشقيق فى مطلع هذا الشهر احتفالا رائماً شاملا احتشـدت فيه المواكب المختلفة بمناسبة جلاء الفرنسيين عن البلاد وخلوصها من براثن الاستعمار ، ولقد ظلت بيروت أربعة أيام كاملة وهى تفيض بالسرور وتهزج أهازيج الفرح والنشوة .

هذه المناسبة الطيبة الرائعة كانت ربيعا للشعراء والأدباء ، فقد هزت عواطفهم بخالد الشعر وروائع البيان ، فانطلقوا يتحدثون عن تاريخ حافل بمآثر الأدباء والأجداد ، وذكر عاصر بمواقف النضال والجهاد ، كما راحوا يشيرون بأصابعهم إلى ما كان من بلايا الاستعمار ورزايا الاستعباد :

إرث من الماضى البغيض مجمع ... فى كل عضو منه سوس ناخر
مشت السياسة فى حواشيه كما ... يمشى على البلد الأمين الغادر
وطغت على حركاته أمواجها ... فغامر من أجلهـا ومقامر
ومؤامرات تشترى فى سوقها ... وتبـاع بالسلع المجاف ضمائر

ولقد مضى أسبوعان وما زالت صحف لبنان تفيض أنهارها بآيات البيان شعراً او نثراً فى تمجيد يوم الجلاء والابتهاج بيوم الحرية والخلاص ، وكنا نود أن نسجل هذه الآثار ولـكنها شىء كثير ؛ فلعل المسئولين فى لبنان يعنون بجمع هذه الآثار وتسجيلها فى كتاب يذاع إكباراً لتلك المناسبة الـكريمة ، وتمجيداً لتلك الذكرى المجيدة

ترجمة مائة كتاب :

من بين القرارات التى اتخذتها أخيراً لجنة الثقافة بالجامعة العربية العمل على اختيار مائة كتاب من الـكتب التى صدرت باللغات الأجنبية ، والقيـام بترجمتها وتوزيعها على بلاد الشرق الأوسط ، وقد ألفت لجنة خاصـة للاشراف على هذا العمل والقيام بتنفيذه .

وتقول اللجنة فى تبرير هذا العمل إنه مما يقوى العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب ، ونقول نحن إنه كذلك يؤدى خدمة ثقافية لأبناء العروبة ، ويعينهم على تتبع التطور الفـكرى فى العـالم ، ولـكن ألا توافقنا هذه اللجنة على أن هذا العمل ينطوى على دعاية للغرب فى الشرق ، وهى دعاية تحرص عليها الأمم الغربية فى الظروف الراهنة وترصد للقيام بها الأموال الـكبيرة .

هذا صحيح ! ولقد كنا نود من اللجنة أن تحرص أولا على اختيار مائة كتاب عربى وتعمل على نقلها إلى اللغات الأجنبية الذائعة وتقوم بتوزيعها فى أوروبا وأمريكا لتـكون دعاية للشرق فى الغرب ، وليعلم أولئك الذين لا يزالون يتصوروننا شعوباً بربرية أننا لا نتخلف عنهم فى كثير إن لم نـكن لا نتخلف عنهم فى شىء ، وما أحوج الشرق العربى فى هذه الظروف إلى الدعاية السياسية والدعاية الفـكرية !

« الجاحظ »



ناظم حكمت أكبر شعراء الترك ينظم وهو في السجن :



في أحد السجون التركية يعيش الآن ناظم حكمت أكبر شعراء الترك في العصر الحديث وقد انقطع عن دنيا الناس منذ عشر سنين ولايزال يرسل خواطره وأحاسيسه إلى العالم المفكر كأنه يقول لهؤلاء الذين قيدوه وحدوه أن الفكر الحر لا يحصره مكان ولا يعقله قيد .

وولد ناظم حكمت في أوائل هذا القرن في مهد مترف من مهود الأسر التركية الأرستقراطية . ولما أتم دراسته العامة أدخل المدرسة التجهيزية البحرية ، فقضى فيها ردحا من الزمن ثم فر منها عام ١٩١٨ ليقصر وقته وجهده على بعث الشعر التركي من جموده ، وتحرير الشعب التركي من قيوده ، فدخل جامعة موسكو ليضيف إلى ثقافته الفرنسية التي شب عليها ، الثقافة السلافية التي صبا إليها . ولكن الثقافات الأجنبية لم تشغله عن ثقافته التركية ، فأحيا في شعره ما مات من الأساطير التركية والأغاني الشعبية ، ووصل بين قديم الشعر وحديثه دون أن يحمل باله لما نظم الشعراء الانتقاليون بين هذا العصر وذاك . فهو في الشعر التركي بمثابة مياكوفسكي ولوركا في الشعر الروسي ، وهو في ذيوع الإسم وسمو المكانة بمنزلة يحيى كمال أمير الشعر القديم ، فلا غرو إذا جعلوه خليفته في إمارة الشعر الحديث .

وناظم حكمت يعشق الحرية ويركب في سبيلها الأهوال ، لذلك لم يُغمض الكماليون طويلا عن آرائه (المدامة) ، فاتجهوا بالنظر السياسي إليه ، وفتشوا داره فيما فتشوا من دور الضباط التلاميذ في الجيش والبحرية ، فعثروا على طائفة من قصائده تبرر اتهامه بالتحريض على قلب نظام الحكم الحاضر وإفساد الشباب ، فقدموه إلى المحاكمة ، فحكم عليه مجلس الجيش ومجلس البحرية بالسجن أربعين عاما . وقد قضى الشاعر من هذه المدة عشر سنين لم يكف أثناءها عن الكتابة .

ولقد نظم فيما نظم قصيدة مطولة في الشاعر التركي الفيلسوف بدر الدين أحد شعراء القرن الخامس عشر الذي حاول أن يؤلب الشعب على طغيان السلاطين فألقوه في السجن ولم يخرج منه إلا إلى المشنقة . وظل ناظم حكمت كما كان بدر الدين مؤمنا بخلوص الفطرة في شعبه المكظوم المظلوم . فأخذ يقويه بالغذاء الأدبي النافع من مآثر أجداده وتقاليد أبطاله . وهو ينظم الآن ملحمة كبيرة شارفت على التمام عنوانها : (أسطورة الاستقلال) ، وموضوعها الحرب التي شنها الشعب التركي على مضطهديه ما بين سنتي ١٩٣٠ و١٩٢٢ ، ومن فصولها فصل عن (نساء الأناضول) وهن يجددن عهود البطولة بنقل الذخائر والمؤن إلى المقاتلين في سهول الأناضول المقفرة .

ذلك هو ناظم حكمت الذي قضى عشر سنين سجينا في بلاده وهي ربع المدة التي حكم عليه بها ، وكل ما اقترفه من الذنوب أنه فكر بحرية ، وكتب ما يعتقد في سبيل الحرية ! !

طانيوس عبده وشريعة اليونان :

قرأ الشاعر الرقيق المرحوم طانيوس عبده ، أن شرائع اليونان تعاقب المرأة الخائنة بجدع أنفها ، والرجل الخائن بقلع عينه ، فكتب على هامش الكتاب ما يلي :

فلو وصلت شرائعهم الينا … على ما نحن فيه من المجون
لأصبحت النساء بلا أنوف … وأصبحت الرجال بلا عيون

طريق الهجرة النبوية :

خرج النبي صلوات الله عليه ومعه الصديق رضوان الله عليه من غار ثور بمكة فمرا بالبحرة ، والمستدل ، وخيمات أم معبد ، وقديد ، وحذوات ، وثنية الرمحاء ، وثنية الكوبة ، والمرة ، وذات كشد ، والمدلجة ، والمسيانة ، وأمج ، والحزار ، وثنية المرة ، ولقف ، ومحاج ، ومرجح ، والأجرد ، وذي سمرة ، وتعهن ، والقاحة ، والعرج ، وثنية الاعتبار ، وكوبة ، ورئماء ، وقباء ، فالمدينة المنورة ، على ما ذكر في عيون الأثر في فنون

المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس » و « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى » وخريطة الهجرة النبوية للأستاذ الحصانى ، ومعجم البلدان لياقوت ، وغيرها .

محمد عبد الوهاب فايد

كتابة الأعداد وقراءتها :

ورد فى كتاب النحو الواضح المقرر للمدارس الإبتدائية (ج ٢ ص ١٦١ الطبعة الثالثة عشرة) المثالان الآتيان :

« غزا المدينة جيش يتألف من ألفين وأربعمائة ... »

« قرأت من الكتاب مائة وعشرين ... »

لقد قدم الأستاذان الفاضلان ماحقه التأخير وأخرا ماحقه التقديم : قدما الألفين على الأربعمائة والمائة على العشرين مع أن الأصل — على ما أرجح — تقديم الأربعمائة على الألفين والعشرين على المائة ، لأن التميز لا يكون إلا للعدد الكبير دون الصغير إذا اجتمعا أى للألفين لا للأربعمائة وللمائة لا للعشرين ، ولهذا يمتنع الفصل بين المميز المضاف والتمييز المضاف إليه إلا للضرورة .

هذا من جهة ومن جهة أخرى لا يجوز كتابة الأعداد وقراءتها من اليسار إلى اليمين ، لأن اللغة العربية على عكس غيرها من اللغات لا تكتب ولا تقرأ إلا من اليمين إلى اليسار . فالألوف مثلا لا تكتب قبل المئات والمئات لا تكتب قبل العشرات والعشرات لا تكتب قبل الآحاد .

وقد ظل أبناء هذه اللغة يكتبون الأعداد ويقرءونها من اليمين إلى اليسار كما هو شأنهم فى كتابة الجمل وقراءتها حتى أوائل العصر التركى أو الفترة المظلمة ؛ وفى هذا العصر استعجمت الأعداد وبعض الألفاظ أو بعبارة أصح استتركت وأصبح أكثر الكتاب والمؤلفين منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا يكتبون الأعداد ويقرءونها من اليسار إلى اليمين خلافا للقاعدة المتبعة فى كتابة اللغة العربية وقراءتها .

وإنى لأرجو أن يقوم الأستاذان الفاضلان بتصحيح المثالين المذكورين عند إعادة طبع هذا الكتاب حتى لا يلقن الطلاب فيما بعد قواعد مغلوطة .

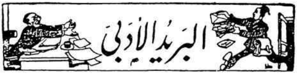
(عمان) لطفى عثمان

دار قديم :

جاء فى كتاب الكامل للمبرد فى أخبار الخوارج هذه القصة « خرج مصعب بن الزبير الى « باجميرا » ثم أتى الخوارج خبر مقتله بعسكن ، ولم يأت المهلب وأصحابه فتوقفوا يوما على الخندق فناداهم الخوارج : ما تقولون فى المصعب ؟ قالوا : إمام هدى . قالوا : فما تقولون فى عبد الملك قالوا : ضال مضل . فلما كان بعد يومين أتى المهلب قتل مصعب ، وأن أهل الشام اجتمعوا على عبد الملك بولايته فلما تواقفوا ناداهم الخوارج ما تقولون فى مصعب قالوا لا نخبركم . قالوا فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا ! امام هدى . قالوا يا أعداء الله بالأمس ضال مضل ، واليوم إمام هدى ! يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله »

قلت : وهذه قصة الدنيا ما بقى فيها عبيدها ، فلست تجد منا خلا منها ، ولا جماعة من الجماعات تحللت من هذه العبادة المخزية ، غير أن القصة إذا جرت بين قوم يحرمون على الناس عبادة الشهوات كانت أدعى إلى العجب ، وأبعد عن الأدب .

على العمارى



« لا غير »(1) أيضاً :

إلى الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبي

تحية وإجلالا .

إن النقطة الأساسية في ملاحظتي حول « لا غير » هي بيان علة التلحين وأنها ليست كما ذكرتم أولا . وقد جاء في ردكم الأخير ما يشعر بتأييدكم لما ذهبت إليه ، وبذلك تم البحث في هذه النقطة كما هو تام في خصوص صحة تلك العبارة « لا غير » لدى المحققين ، وأحسب أنني قد أشرت إلى ما في عبارة « التاج » التي نقلتموها بقولي : « كما جنح إليها كثير من المحققين » الخ .

أما فيما يتعلق بالاستشهاد بما جاء في تلك « الجريدة » إزاء الرد على ابن هشام فإنني لا زلت غير مطمئن إليه لأن ابن هشام قد لحن جميع عبارات المولدين التي انتظمت « لا غير » بحجة أنها لم تسمع عن العرب ، ومن ضمن هذه العبارات ما شملته « الجريدة » فالاستشهاد بها ضده استشهاد بما هو منتقد وخطأ في نظره ، وهذا ما لا تسمح به قوانين البحث التي تحظر الاستدلال بموضع النزاع ، ومن أجل هذا أرى أن الرد عليه لا يكون بهذا الوضع ، على أن الاستدلال بكلام أئمة اللغة من المولدين موضع نزاع بين العلماء ، والجمهور على عدم جوازه كما هو مبسوط في الخزانة للبغدادي وغيرها من كتب هذا الفن .

والسؤال عن الفاء في « فلم تقنع » فجوابه أن الفاء واقعة في موضعها والتحريف فيما بعدها حيث انقلبت النون ميما والصواب « فلن تقنع » بالنون كما هو مرسوم في الأصل المحفوظ ولا أدرى أكان هذا التحريف وقت الكتابة أم كان وقت التصفيف بالمطبعة ومثل هذا فإن جواب الشرط قد يقترن بالفاء ، ولو لم يكن من نوع ما أشار إليه ابن مالك بقوله :

واقرن بفا حتما جوابا لو جعل   شرطا لأن أو غيرها لم ينجعل

وممن نص على جواز دخولها على الجواب المنفي بلم أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري كما نقله عنه غير واحد من النحاة .

وأما السؤال عن صحة هذا التعبير : « فيا حبذا لو أن الأستاذ الخ ... » فجوابه أنني لم أهتد إلى ما يمنع من صحة هذا التركيب بعد ما صرح النحاة بأن لو تكون مصدرية كما في قوله تعالى : « ودوا لو تدهنوا فيدهنون » وبعد ما ذكروا أن المخصوص يحذف كما في قول مداد بن هماس الطائي :

ألا حبذا لولا الحياء وربما   منحت الهوى ما ليس بالمتقارب

وأظن أن مبالغتكم في التحدي بقولكم : « وعن ورود مثل هذا التركيب « فيا حبذا لو أن الأمر كذا وكذا » في كلام قديم أو مولد متقدم أو متأخر » مما ساعدت على الإجابة عما يأتي :

جاء في مقال الأستاذ الكبير محمد كرد علي الذي نشرته الرسالة في عدد ٩٢ تحت عنوان : « الدرر الكامنة » ما نصه : وحبذا لو شفع الناشر . وجاء في قصيدة رواية الصاهرة للأستاذ غنيم التي نشرتها الرسالة أيضا في عدد ٣٠١ :

هذا كلام واضح صريح   يا حبذا لو أنه صحيح

إن الأوان هذه الأيام   يا حبذا لو صحت الأحلام

وفي الختام أشكر لحضرتكم الاعتناء بتلك الملاحظة والرد عليها حياكم الله وبياكم والسلام عليكم ورحمة الله .

(طرابلس الغرب)   عبد الرحمن الفلهود

علية ابنة المهدي في طبرناباذ :

أذكرني المقال الذي دبجه الأستاذ الفاضل شكري محمود أحمد بشأن طبرناباذ وما قيل فيها (الرسالة ذات الرقم ٧٠٢) بأبيات صاحبة الفن علية ابنة المهدي التي تعتذر فيها إلى أخيها الرشيد — رجل الدنيا وواحدها في ذلك الزمان — وكان قد انتهى إليه أنها أقامت في تلك المدينة أياماً بعد انصرافها من الحج فغضب . فقالت :

أي ذنب أذنبته أي ذنب   أي ذنب لولا رجائي لربي

بمقامي بطيرناباذ يوماً   بعده ليلة على غير شرب

(1) أعتذر عن تأخر نشر هذه الكلمة حيث لم أتصل بعدد ٦٩١ إلا متأخرا مع مدة أعداد بعده .

ثم باكرتها عقاراً شمولا تفتن الناسك الحليم وتصبي
قهوة قرقفاً يراها جهولا ذات حلم فراجة كل كرب

قالوا : وصنعت فى ذلك لحناً ، فلما سمع الرشيد الشعر واللحن رضى عنها .

قلت : هذا الاعتذار أفظع من الذنب . . . ولكنها شفاعة الشعر والفن .

وفى أخبار هذه (العلية) الظريفة ، مما رواه أبو الفرج فى أغانيه ، هذه الحكاية اللطيفة :

قال أخوها إبراهيم بن المهدى — وهو مثلها صاحب فن — ما خجلت قط خجلتى من علية أختى ؛ دخلت عليها يوماً عائداً فقلت : كيف أنت يا أختى جُعلت فداءك ، وكيف حالك وجسمك ؟ فقالت : بخير والحمد لله . ووقعت عينى على جارية كانت تذب عنها ، فتشاغلت بالنظر إليها فأعجبتنى وطال جلوسى ، ثم استحييت من علية فأقبلت عليها فقلت : كيف أنت يا أختى جعلت فداءك ، وكيف حالك وجسمك ؟ فرفعت رأسها إلى حاضنة لها وقالت : أليس هذا قد مضى وأجبنا عنه ؟

قال إبراهيم : فخجلت خجلا ما خجلت مثله قط وقت وانصرفت .

***

ورجعة إلى طيرناباذ نسأل فيها الأستاذ الفاضل بعد السماح : هل الأطلال التى ما تزال ماثلة للعيان فى تلك المدينة المندثرة هى القباب التى ذكروا فقالوا : « لم يبق بطيرناباذ إلا قباب يسمونها قباب أبى نواس » .

هذا وللأستاذ أفضل الحمد .

(نابلس) **فدوى عبد الفتاح طوقان**

١ — إلى الأستاذ عباس خضر :

استوقفتنى بعض التعقيبات التى نشرها الأستاذ فى العددين ٦٩٩ ، ٧٠٢ من الرسالة الغراء ، فليسمح لى بهذا التعليق المتواضع :

١ — لا أستطيع أن أوافق الأستاذ على رأيه فى « رؤيا لم تقص » فى قصة : « قطر الندى » للأستاذ العريان ؛ فهو يرى بعض النقص فى هذا الموضع ويسأل كيف عرف المؤلف تمام رؤيا لم يقصه رائيها .

ونحن نعرف أن للقصة أصلا تاريخيا ، ولعل ذلك هو الذى دفع إلى هذا التساؤل ، ولكنى أحب أن أقول إن مؤلف القصص التاريخى لا يقف عادة موقف المؤرخ المحقق ، وإنما له حقه — كأديب فنان — فى أن يحلق بعض الحوادث الخيالية لكى يتم لقصته ما يريد من التأثير ما دامت الغاية فنية ، وليست تحقيقية .

ونحن لن نسأل سؤال الأستاذ قبل أن نسأل أسئلة كثيرة أخرى من قبيله : كيف رأى دانتى صنوف العذاب فى جحيمه ؟ وكيف رأى شوقى قرية الجن فى قصة المجنون ؟ وكيف يعرف توفيق الحكيم حوادث قصصه ومعظمها خيالى ؟ ؟

ومع أننا جميعا نعرف أن أدباء المهجر لا يعبأون بقواعد اللغة كما يقول الأستاذ ، إلا أننى لا أصدق بمثل هذه السهولة أن الكاتب يخطىء هذين الخطأين الواضحين الفاضحين ، وأرجح أنه أراد فى الأولى « يجيمون » على صيغة إسم الفاعل من « أجاع » وأن فى الثانية خطأ مطبعيا لا نستطيع أن نجزم بعدم وجوده لأنه خطأ مطبعى بسيط منتظر ، ولو أنه خطأ لغوى كبير غير منتظر .

وإلى الأستاذ سلامى وتقديرى .

٢ — إلى الأستاذ محمود شاكر :

رأيتك أيها الأستاذ الفاضل تورد هذا البيت هكذا :

فقالت من أى الناس أنت ؟ ومن تكن ؟
فإنك راعى صرمة لا نزينها

بعلامة استفهام بعد « ومن تكن » .

وأغلب ظنى أن « من » هنا شرطية وليست استفهامية ، والدليل على ذلك هذا الجزم فى الفعل المضارع ، فإنه لا محل له هنا فى حالة الإستفهام ، وهذا هو رأيى الضعيف والسلام .

محمد أحمد عبد



الصعلوك ...

لجي دي موباسان

ترجمة الأستاذ أحمد عبد الرحمن

لقد عرف فى حياته أياماً خيرا من هذه ، على رغم ما به من عاهة وبؤس . كان قد فقد ساقيه وهو فى الخامسة عشرة من عمره حينما صدمته عربة فى شارع فارفى الكبير . ومنذ ذلك الحين وهو يطلب الصدقة ماضيا فى الطرقات متنقلا بين المزارع متكئا على عكازيه اللذين جعلا كتفيه يرتفعان إلى ما فوق أذنيه ، فكانت هامته تبدو كأنها غائصة بين مرتفعين

وإذ كان طفلا لقيطا قد عثر عليه راع ببيت فى نفق ، أمسية يوم الموتى فسماه معمده بهذا السبب نيقولا توسان . ثم كانت تربيته مما يجود به أهل الخير فنشأ بعيداً عن كل ثقافة مجرداً عن أية معرفة ، قد جرى له هذا الحادث عقب شربه بعض أقداح من الزبيب قدمها إليه خباز القرية ، وكان أضحوكة بين الناس ثم غدا منذ ذلك الحين شريدا ، فأنه لم يكن يحسن عملا من الأعمال إلا أن يمد يده

كانت البارونه أثارى فيما مضى قد تركت له إلى جانب حظيرة الدجاج بالمزرعة اللاصقة للدار كوخا حقيرا مليئا بالقش ينام فيه . وكان هو واثقا فى أشد الأيام مجاعة أنه واجد دائما كسرة من الخبز وكوبا من شراب التفاح فى المطبخ . وكثيرا ما كان يتلقى بعض الدريهمات من السيدة العجوز تلقيها عليه من أعلى الدرج أو من نوافذ حجرتها . أما الآن فقد ماتت هذه السيدة

لم يكن يظفر بشيء فى القرى . فلقد عرفه الناس جيد المعرفة وقد برموا به وعيوا بأمره منذ أربعين سنة وهم يرونه يتنقل ببدنه البشع وأثوابه المرقعة على اقدامه الخشبيه بين الخرائب والأنقاض ، ومع هذا فهو لم يكن يريد أن يبرح المكان . لأنه لم يكن يعرف على الأرض شيئا غير هذه الزاوية من البلد ، هذه القرى الثلاث أو الأربع التى قضى فيها حياته التعسة . لقد وضع حدودا للامكنة التى يزاول فيها مهنته . وما كان ليجاوز هذه الحدود التى قد اعتاد أن لا يعدوها ألبتة

كان يجهل ما إذا كان العالم يمتد إلى ما وراء الأشجار التى تحيط ببصره ، ولم يكن يسائل نفسه فى هذا الشأن . وحينما كان الفلاحون يضيقون بملاقاته على أطراف حقولهم وحافات أنفاقهم كانوا يصيحون به : لماذا لا تذهب إلى القرى الأخرى بدلا من تنقلك هنا على الدوام ؟ لم يكن يحير جواباً ، بل يبتعد عنهم وهو يشعر بنوع من الخوف المبهم من المجهول ، خوف البائس الذى يخشى أمورا كثيرة لا يتبينها ، كالوجوه الجديدة ، أو اللعنات ، أو النظرات المرتابة التى يرميه بها أناس لا يعرفونه ، أو الشرطة الذين يمرون بالطريق اثنين أثنين ، والذين كانت رؤيته اياهم تحمله بالغريزة على الامعان فى الشجيرات الوحشية أو الاختفاء وراء كومة من الحطب

حينما كان يلحظهم من بعيد ، ويرى بريق ثيابهم تحت أشعة الشمس ، كان يجد للتو خفة غريبة خفة الوحش الذى ينشد الملاذ ويطلب النجاة . فينسلت من بين عكازيه ويسقط على الأرض كالخرقة ، ثم يتدحرج كالكرة ولا يلبث أن يتصاغر ويتضاءل كمنظر أرنب فى جحرها وقد اختلطت أسماله القاتمة بالأرض

ومع هذا لم يسبق أن كان له معهم شأن من الشئون . ولكنه كان يحمل هذا الشعور فى دمه كما لو كان قد ورث هذا الخوف والمكر عن أبويه اللذين لم يعرفهما ألبتة

لم يكن له بيت يؤويه ، فلا سقف يغطيه ولا كوخ يضمه ولا ملجأ يحميه . كان فى الصيف ينام فى أى مكان . وفى الشتاء كان ينفذ إلى مخازن الغلال أو فى زرائب الماشية بمهارة ملحوظة ، كان يبادر دائما إلى الفرار قبل أن يحس وجوده أحد . وكان يعرف الثقوب التى يمكن بواسطتها النفاذ إلى المنازل والأبنية . ولما كان طول استخدام عكازيه قد أكسب ذراعيه قوة غير عادية ، فقد كان يصعد متسلقا إلى سطوح الأهراء معتمدا على قوة راحتيه وحدهما حين يظل أحيانا أربعة أو خمسة أيام دون حركة حينما يكون قد جمع فى تجواله مؤونة كافية

كان يحيا كوحش الغاب وسط الناس دون أن يعرف أحداً أو يحب أحداً . ولم يكن يترك فى نفوس الفلاحين إلا نوعا من

الاذدراء الخالى من الاكتراث ، والبغض الذى يمازجه الأغضاء، وقد لقب كلوش (١) لأنه كان وهو يترجح بين قدميه الخشبيتين أشبه بالناقوس وهو يترجح بين محوريه

وقد مضى عليه يومان لم يطعم فيهما شيئا ولم يمنحه أحد شيئا ، فقد ضاق به الناس جميعاً وأرادوا أن يفارقهم ويذهب عنهم

وكان الفلاحات يصحن به على أبوابهن حينما يرونه مقبلا من بعد : ألا تريد أن تذهب عنا أيها الوغد ، ألم أعطك قطعة خبز منذ ثلاثة أيام

فكان يدور على وتديه ، ثم يمضى إلى البيت المجاور حيث يستقبل كما استقبل فى الأول

وتصايح النساء من باب لآخر :

ليس من سبيل مع هذا إلى كفاية هذا المتبطل الكسول من الطعام طوال السنة

ومع هذا فان المتبطل الكسول كان فى حاجة إلى الطعام كل يوم

كان قد طاف فى شوارع سانتهلير وفارفى وبيت دون أن يربح سنتيما أو يحصل على كسرة من الخبز ، ولم يبق له من أمل إلا فى تورنولا ؛ ولكن كان عليه أن يقطع إليها فرسخين على الشارع الكبير ، وقد كان به من الاعياء ما لا يستطيع معه السير ، إذ كان خاوى البطن كما كان خاوى الجيب

ومع هذا فقد استأنف السير

كان الوقت فى ديسمبر . وكانت ريح باردة تهب فوق الحقول وتصفر من خلال الاغصان اليابسة . وكانت السحب تتلاحق وسط السماء القاتمة القائمة ممتدة فى السير إلى حيث لا يعلم لها غاية ، والمعوه يسعى ببطء ناقلا عكازيه الواحد بعد الآخر فى جهد واعياء معتمدا على ساقه الملتوية التى بقيت له والتى تنتهى بقدم بشعة المنظر قد لفت ببعض الخرق البالية

ومن حين لآخر كان يجلس على حافة النفق ويستريح بضع دقائق . وقد ألقى الجوع فى نفسه الكثيفة المظلمة شعورا بالغم والحرج . ولم يكن يحمل إلا فكرة واحدة : وهى الأكل ، ولكنه لم يكن يعرف الوسيلة إلى هذا

وشعر بالألم والاعياء بعد مسير ثلاث ساعات على الطريق الطويل ولما بصر بأشجار القرية من بعد جد فى السير

وأجابه أول فلاح التقى به وسأله كلوش الصدقة

ها أنت لا تزال على حالك القديم ، أليس من سبيل إذن إلى التخلص منك ؟

فابتعد كلوش وجعل يمر بالمنازل وينتقل من باب إلى آخر فيرده الناس ردا جافيا ويصرفونه دون أن يعطوه شيئا ، فيواصل مع هذا تجواله فى صبر واصرار ، فلا يحصل فلسا واحداً

ثم قصد إلى المزارع وجعل يعبر الطرق المبللة بالمطر ، وقد أخذ منه التعب ونالت منه المشقة حتى ما يستطيع أن يرفع عكازيه ولكنه طورد فى كل مكان فقد كان هذا يوما من هذه الأيام التى يشتد فيها البرد وتشيع فيها الكآبة فتنقبض لها القلوب وتضيق فيها الصدور وتظلم لها النفوس ولا تنبسط فيها اليد لاعطاء أو معونة

فبعد أن طاف بكل المنازل التى يعرفها قصد إلى حظيرة السيد (شيكيه) فاستلقى هناك فى زاوية نفق عند طوال الحظيرة ، وفك وثاقه كما كان يقال تعبيرا عن الكيفية التى كان يترك بها نفسه يسقط بين عكازيه بأن يدفعهما من بين ذراعيه . ومكث وقتا طويلا لا يتحرك ، وقد اشتد به الجوع وطغى عليه الألم ، ولكنه كان من البلادة والسذاجة بحيث لا يستطيع ادراك ما هو فيه من بؤس وسوء حال

كان ينتظر شيئا مجهولا ، فلقد اعترته تلك الحالة التى نجدها كثيرا فى انفسنا وهى حالة الانتظار الغامض لشىء مجهول . كان ينتظر فى هذا الركن من الحظيرة تحت هذا الجو القارس تلك المونة التى يتوقعها المرء دائما من السماء أو من الناس دون أن يسأل نفسه كيف ولما ذا وعلى يد من ستبلغه ، ومر به عدد من الدجاج الأسود يبحث عن غذائه فى الأرض التى تطعم جميع الكائنات ، وبين اللحظة والأخرى كانت الطير تميل بمنقارها فتلقط من الأرض حبة أو تصيب بعض الحشرات الدقيقة ، ثم تواصل بحثها البطىء الوئيد

وكان كلوش ينظر إليها دون أن يفكر فى شىء . ثم عرض له (وأحرى أن يقال إنه أحس من أن يقال إنه فكر أو قدر) أن احدى هذه الدجاجات يطيب اكلها إذا هى اصلحت وانضجت على النار

(١) كلوش يعني الجرس فى الفرنسية

وما اختلج فى نفسه قط أنه مقدم على سرقة ثم تناول حجراً كان على مقربة منه . ولما كان بارع اليد فقد اصات للتو أقرب دجاجة منه . فسقطت على جانبها وهى ترفرف بجناحيها ، وفرت بقية الدجاج متحاملة على مخالبها الدقيقة ، وعاد كلوش فركب عكازيه ثم سار إلى حيث يأخذ القنيص بحركات اشبه بحركات الدجاج .

وما إن اقترب من الجسم الصغير الأسود وقد انتشرت على رقبته بعض النقط الحمراء ، حتى تلقى فى ظهره دفعة رهيبة أطارته عن عكازيه وأرسلته على الأرض إلى مسافة عشرة أقدام . وانقض السيد شيكه على السارق وقد اشتد به الغيظ وزاد به الغضب فأوسعه ضرباً . فكان وهو يضربه كالطروق أوكن به مس ، كان يضربه كما يضرب كل فلاح من سرقه أوسلبه شيئاً ، فانهال ركلا ولكما على المعوه الذى لم يستطع عن نفسه دفاعا .

وجاء أهل المزرعة بدورهم فاشتركوا مع السيد فى ضرب المتسول بما لديهم من الآلات ، حتى تعبوا من ضربه ، ثم حملوه إلى حظيرة الحطب فأودعوه فيها ريثما يرسلون فى طلب الشرطة .

ومكث طريحاً على الأرض وقد سالت دماؤه وأهلكه الجوع وأشرف على الموت حتى جاء المساء ثم تبعه الليل وأعقبه الفجر دون أن يطعم شيئاً . وأقبل اثنان من الشرطة عند الظهيرة ففتحا بشىء من الحذر إذ كانا يتوقعان مقاومة . فقد زعم السيد شيكه أن الصعلوك قد هاجمه وأنه لم يدفع عن نفسه إلا بجهد جهيد .

وصاح به الشرطى أن قف .

ولكن كلوش لم يقو على الحركة . وقد حاول أن يتحامل على عكازه فلم يستطع؛ فظن الشرطة أنه يتصنع العجز ويلجأ إلى الحيلة وينوى شراً ، فأمسك به الرجلان المسلحان بعنف وشدة وحملاه بالقوة على عكازيه .

وأذهله الخوف ، هذا الخوف الفطرى فى نفسه من الحائل الصفراء ، خوف الطريدة من الصائد . أوخوف الجرذ من القط . فبذل جهداً خارقا حتى استطاع الوقوف .

وأمره الشرطى بالسير ، فسار على مشهد من عمال المزرعة وهم يرمقونه جميعاً بنظراتهم فكان النساء يشرن إليه مهددات ، والرجال يتضاحكون ويسبونه ويحمدون الله أن وقاهم شره وأراحهم منه .

ومضى كلوش بين حارسيه ولايزال به رمق من حياة وفضل من قوة كان لابد منهما لكى يواصل السير إلى المساء ، واستغلق عليه الأمر واشتد به الانزعاج بحيث لم يستطع أن يفهم شيئاً مما نزل به . وكان المارة يقفون فى الطريق لمشاهدته ويتحدث الفلاحون عن لصوصيته ؛ وبلغوا قصبة المقاطعة نحو الليل ، ولم يكن قد سبق لكلوش أن بلغ قط إلى هذا المكان ، فلم يكن يتصور ما وقع له ولا يفكر فيما عسى أن يحل به . وقد أصابه الوجوم واستولت عليه الدهشة لهذه الحوادث الباغتة وهذه الوجوه والمنازل التى لم يكن له بها عهد .

ولم ينطق بكلمة واحدة ، وما كان لديه ما يقوله إذ لم يكن يفهم شيئاً ، وقد مضى عليه سنوات لم يتحدث فيها إلى أحد حتى فقد على التقريب سهولة النطق ومرونة اللسان ، وكانت أفكاره من الغموض والاختلاط بحيث لا يمكن الإبانة عنها بالألفاظ وأودع فى سجن القرية . ولم يفرض الشرطيان أنه قد يكون فى حاجة إلى الطعام ، ثم تركاه إلى اليوم التالى .

ولكن حين جىء لاستجوابه فى الصباح البكر وجد على الأرض طريحاً وقد أسلم الروح ، فياللمفاجأة !

أحمد عبد الرحمن